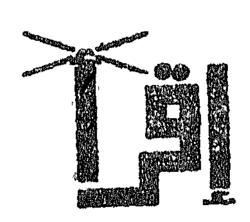


تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : أنيس منصور





اهداءات ٢٠٠١

الاستاذ/القطب محمد طبلية

القاهرة

صلاح طنطاوى

½ مليون دقيقة في أستراليا

اقرأ ٤١٧

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٧)

الناشر : دار المعارف بمصر ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة . ج . م . ع .

تقـــديم

بقلم سعد الدين توفيق

كانت فكرة تقديم مسرحية عربية فى أستراليا فكرة غريبة حقًّا . . ولكنها لم تكن مستحيلة . . فهناك حوالى خمسين ألف عربى يعيشون فى أستراليا ، لا يشاهدون مسرحاً عربيا أو فيلماً عربيا أو يقرءون جريدة أو مجلة عربية . . ليس لديهم سوى الذكريات العميقة التى تربطهم ببلادهم .

فى هذا « الوادى » قرر الفنان المصرى صلاح طنطاوى أن « يصرخ » ! . وهذه هى تفاصيل أول — وربما آخر — تجربة فنية .

فى شهر مارس فكر صلاح فى أن يحتفل بذكرى سيد درويش . ولكن كيف وأين يستطيع إقامة مثل هذا الاحتفال وهو شخصيًّا لا يعرف أحدا هناك لأنه كان قد وصل مهاجراً إلى أستراليا قبل ذلك بشهرين فقط . وكان « بالتيلة » يعيش ويعمل فى وظائف لا تتفق وماضيه الطويل فى القاهرة رساماً وممثلا ومؤلفاً مسرحيا . ومع ذلك فقد واجه صلاح التحدى بإرادة قوية ، بل لعلنى لا أبالغ إذا وصفتها بأنها جبارة . إذ لابد أن تكون إرادتك جبارة حقًّا عندما تقرر أن تحتفل فى أستراليا بذكرى سيد درويش فى مسرح أمام جمهور ، مع العلم بأنك

مفلس ليس فى جيبك أجرة ركوب تاكسى ، فما بالك بدفع إيجار مسرح ! . . وأنك جديد لا تعرف أحداً فى البلد ومع ذلك تريد تقديم اسكتشات غنائية من أوبريتات سيد درويش ! . . وعلاوة على هذا كله فليس لديك أسطوانة واحدة من أغانى سيد درويش ! . .

الشىء الوحيد الذى كان يملكه صلاح طنطاوى يومئذ هو أنه يحفظ أغانى سيد درويش ، ويعرف قصة حياة سيد درويش معرفة جيدة جداً إلى درجة أنه ألف عنه مسرحية منذ سنوات قدمها مسرح التليفزيون ولا تزال مسجلة ومحفوظة بعناية فى مخازن المبنى العتيد القائم على كورنيش النيل .

وبدأ صلاح يذلل المشكلات واحدة واحدة . . مشكلة المسرح حلها عندما اتفق مع الأب بولس راعى كنيسة سيدة لبنان على إقامة الاحتفال بذكرى سيد درويش فى كنيسته . . ووافق الأب وتطوع بأن يدعو بنفسه جمهور المصلين لسماع المحاضرة بعد الصلاة . . وهكذا ضمن صلاح المكان والجمهور وبقى أن يعد الاسكتشات والأغانى . وهذه المشكلة حلها عندما عكف على تحفيظ شابين مصريين مجموعة من أغانى سيد درويش .

وبدأت البروفات فى صالة كنيسة سيدة لبنان . ولبى كثيرون من الهواة العرب هذه الدعوة فانضموا إلى الفرقة . بل إن طلبات الانضمام فاقت العدد المطلوب وهو ٣٠ شخصية من شخصيات الرواية . ولم يبحث المخرج المؤلف عن بطلة لفرقته . إذ تقدمت إليه فتاة مصرية جميلة موهوبة اسمها برناديت مهران . ومع بدء البروفات بدأت المتاعب . من ذلك مثلا ما لمسه صلاح فى معظم الممثلين من عجز عن حفظ الحوار وحفظ الحركة

٧

واستطاع صلاح رغم ذلك أن يذلل معظم هذه العقبات . أما العقبة التى فشل فشلا ذريعاً فى تذليلها رغم كل المحاولات فكانت تتلخص فى شاب من الهواة اسمه فهمى . فبعد بروفات شهر كامل اتضح عجزه التام عن حفظ جملة واحدة تتألف من أربع كلمات ! . . مرة بعد مرة ، وبروفة بعد بروفة ، ولا فائدة ! . . وفى كل مرة يبدو وكأنه غريب يشهد البروفة لأول مرة ! ! . .

يقول صلاح : « عرضت عليه أن يترك الدور ما دام لا يستطيع أن يحفظه . ولكنه تمسك بالدور بشكل مؤثر . فتركت له الدور وبحثت عن طريقة أعالج بها هذه المشكلة . ثم وجدت الطريقة . كان دوره يتطلب أن يمسك مصحفاً فى يده طول الوقت ويفتحه من وقت لآخر ويقرأ فيه . فكتبت له دوره فى نوتة صغيرة واستبدلتها بالمصحف على أن يقرأ دوره من النوتة باستمرار وكأنه يقرأ القرآن .

« ثم جاء اليوم الموعود . يوم الافتتاح وتحولت صالة الكنيسة الهادئة إلى صالة سينما فى أحد أحياء القاهرة الشعبية ! ! فمن أجهزة التسجيل تتصاعد الأغانى المصرية . ومن البوفيه تتصاعد رائحة الطعمية التى أعدتها أم برناديت لبيعها فى سندويتشات استكمالا للجو الشعبى المصرى .

وسط هذه الحرارة وهذا الحماس بدأنا الحفل . فقدمنا تابلوه « الوطن العربى » وهو النشيد الذى وضعه محمد عبد الوهاب . . ثم تابلوه « عدوية » من ألحان محمد الموجى . وتابلوه « الجارسونات » من ألحان سيد درويش . وبعد هذه التابلوهات الغنائية الراقصة قدمنا مسرحية « سيد درويش » . . وقد نجحنا نجاحاً سأظل إلى آخر عمرى أتذكره

وأتدفأ به . كان التصفيق يقاطعنا طول الوقت . والضحك يتعالى أمام كل جملة مرحة . وملأت السعادة قلوبنا نحن الممثلين .

« أما فهمى فقد أثبتت مفاجآته اللطيفة أنها أكبر من ذكائى ! . . كنت أتصور أنني ضمنته بعد أن كتبت له دوره فى نوتة وسمحت له بأن يقرأ الدور من النوتة أثناء التمثيل ، ولكنه كان يفتح النوتة ويردد حواراً من الفصل الثانى فى حين أننا فى الفصل الأول . . أو يردد حواراً من الفصل الأول ونحن فى الفصل الرابع حتى بدا وكأنه يعيش فى مسرحية أخرى . وحتى كاد يحدث لنا بلبلة غريبة على المسرح لولا ما كان يسود العرض كله من روح طيبة .

« ثم كان دوره يتطلب منه أن يحمل إبريقاً مليئاً بالشاى ويوزعه على الممثلين فى أحد المشاهد . وقد حرصت على أن أملأ له الإبريق بنفسى بين الكواليس حتى لا يحدث خطأ . ومع ذلك فقد ظهر على المسرح والإبريق خال تماماً من الشاى ! . . واكتشفت فى النهاية أن فهمى شرب الشاى كله أثناء فترات الاستراحة حتى يبقى منتبهاً ولا يكبس عليه النوم !

« وجاء موقف بينى وبينه على المسرح . كان الموقف يقضى بأن يخرج فهمى من المسرح ويتركنى بمفردى على المسرح لكى أغنى « زورونى كل سنة مرة » . .

« وبدأ الموقف على ما يرام . وانتهى فهمى من دوره . وقال : « تصبح على خير يا شيخ سيد » ولكنه لم يخرج من المسرح . وقف جامداً فى مكانه وقد نسى البروفات العديدة التى تدربنا فيها على هذا المشهد .

همست له بالخروج : اخرج يا فهمى . . اخرج . ولم يخرج ! . .
تصلب فى مكانه ولم يتزحزح . واضطررت أن أهمس لرجال الإضاءة لتخفيفها وأكملت المشهد العاطفى ، فبكيت وغنيت وهو واقف بجانبى إلى آخر الفصل . وبين الكواليس أمسكت بتلابيبه وسألته عن السر فى عدم خروجه . فأجاب فى براءة تامة بأنه كان يعجب بأدائى للمشهد الأخير . ولذلك وقف ليشاهدنى عن قرب ! ! . .

« كان لا بد أن تحدث هذه الأخطاء اللطيفة فى عمل هو الأول من نوعه فى أستراليا ومع أشخاص يقفون على المسرح للمرة الأولى فى حياتهم . وكان النجاح رائعاً وفى الختام غنينا النشيد الخالد « بلادى بلادى » فألهبنا حماس الجماهير التى وقفت تردد النشيد معنا والدموع تملأ عيونها » .

هذه سطور من كتاب جديد اسمه « ½ مليون دقيقة فى أستراليا » من تأليف صلاح طنطاوى .

إن هذا الكتاب متعة حقيقية لأنه يروى بصدق وبصراحة تجربة حقيقية . وبعد أن قرأته مرتين ، مرة بالقطاعى عندما تصفحته ، ومرة بالجملة عندما عدت إلى أول سطر فيه وقرأته بالترتيب ، سرحت مع أحلامى وتمنيت أن يفكر صلاح طنطاوى فى تحويل هذه القصة الحقيقية إلى قصة سينمائية . وليس من شك فى أنها ستكون فيلماً لطيفاً وجديداً وغريباً . . .

سعد الدين توفيق

الطريق إلى قوس قزح

فى الطائرة أخيراً حقًّا . . .

ورائى أحلامى الكثيرة العريضة فى أشياء بعضها مبهم وبعضها واضح . . وأمامى قارة هى أبعد مكان فى الدنيا . وهى فيما سمعت المكان الوحيد الذى يسمح بتحقيق أكثر الأحلام طموحاً وجنوحاً إلى الخيال .

هأنذا فى الطريق إلى قوس قزح أمتطى هذه الطائرة الضخمة التى لم أرها قبل ذلك إلا فى المجلات وأفلام السينما .

عند دخولى الطائرة لفحنى هواء بارد ، واستقبلنى موظف طويل عريض ذو شارب كث ، وذكرنى منظره وثوبه الأزرق الرسمى بصورة البحار الشهير على صناديق السجاير . ثم أرشدتنى المضيفة إلى مكانى الذى تصادف أن كان بجانبه مقعد آخر خال . جلست ومعى حقيبة ضخمة كنت أتعثر فى حملها ، ولكنى أصمم على الاحتفاظ بها متظاهراً بأنها (حقيبة يد) متهرباً بذلك من الوزن القانونى المسموح به فى الطائرة وهو ٢٠ كيلو . هذا الوزن الذى حرصت على ألا تزيد حقائبى الأخرى عليه .

استمر الهواء البارد الذى استقبلنى يعيش فى نفسى وخيالى ويلفح أطرافى فيكاد يجمدها . لم يسترع دخولى وجلوسى انتباه أحد ، كما كنت

أتصور ، أو كما كان يصور لى انفعالى الشديد . ولم يكن جميع من فى الطائرة مهاجرين إلى أستراليا أيضاً كما كنت أتصور ، ثم جاءت جلستى بجوار النافذة ، فأشعلت سيجارة وجلست، فى توتر وتأهب منتظراً لما يحدث .

ولكن لم يحدث شيء . ولم تأمرنا المضيفة بربط الأحزمة كما كنت أسمع من قبل ، ولعلها حرصت على عدم إقلاق راحة الركاب النائمين ، حيث كانت الساعة منتصف الثالثة صباحاً .

لم يصعد من مطار القاهرة غيرى . ولم يجاورنى أحد فى مقعدى ، وقضى على أن أقطع المرحلة الأولى من رحلتى وحيداً ، محروماً من متعة الحديث مع الركاب كما يحدث فى قطارات الدلتا .

ثم أقلعت الطائرة فى هدوء . وفى ثوان اختفت عن عينى معالم مطار القاهرة ، ووجدت نفسى فى بطن هذا الحيوان الخرافى ، فى أجواء الفضاء .

حاولت أن أقرأ فلم أستطع ، وحاولت أن أنام مثل باقى الركاب فلم أستطع ، ووجدتنى متيقظاً متنبهاً متوتراً ، فهربت من تصورات المستقبل إلى اجترار الماضى . منذ شهور قليلة لم تكن فكرة الهجرة قد خطرت لى على بال . ربما عابثتنى فكرة السفر من وقت لآخر كما يحدث لكل إنسان عندما تمر به ساعات ضيق أو ساعات رغبة فى التغيير .

ولكن الهجرة كتغيير مادى ملموس لم تكن قط من بين الرغبات التى عابثت خيالى فى أى فترة من فترات حياتى ، فإننى بطبيعتى أتهيب دائماً التغيير ، وليس أحب إلى نفسى من أن يستمر حالى دائماً كما هو ،

إيثاراً للدعة والألفة وتهيباً من المجهول . ولقد عوضني الله عن ذلك (الركود) الجسمي بنشاط روحي رائع يتمثل فى خيال محلق يطوف الدنيا كلها فى غمضة عين . خيال يحقق لى كل ما أحب بصورة لا تستطيع الحقيقة أبداً أن تصل إليها .

وأستراليا نفسها لم يكن اسمها ليعنى لى شيئاً أكثر – ربما – من المعلومات الجغرافية التى تلقنتها فى الماضى والتى تراجعت على مدى السنين إلى أطراف الذاكرة كمعلومات باهتة غير محدية لا يشعر العقل باحتياجه إليه .

ومع ذلك هأنذا فى الطائرة ، فى الطريق إلى أستراليا .

ما الذى حدث حتى جعلنى أغير حياتى بهذا الشكل الحاد ؟

لعلها جملة عابرة سمعتها من زميل لى فى العمل أثارت فى نفسى كوامن كثيرة لم أكن أدرى بوجودها من قبل .

خيل إلى بعد حديثى العابر مع زميلى بأن الهجرة هى الحل المثالى لكل مشاكلى . وماذا كانت مشاكلى ؟ .

لم تكن مشاكل بقدر ما كانت رغبات تجيش فى نفسى باستمرار ، تهبط وتعلو ولكنها لا تختفى أبداً . . إن مواهبى جديرة بأن توفرها لى ، ولكن ظروفى كانت تمنعنى من الحصول عليها . رغبات فى معايشة تلك العوالم الساحرة الغريبة التى قرأت عنها آلاف الكتب ، يضاف إلى ذلك رغبتان أساسيتان أعتقد أنهما السبب المباشر فى هجرتى إلى أستراليا . السبب الأول يعود إلى خيالى الجامح الذى يرفض دائماً أن يتصور شيئاً دون أن يسرع كالريح إلى نهايته . حتى اختلطت نهايات الأمور مع

بداياتها فى تصورى . هكذا تصورت أننى مهما عشت ومهما كتبت ومهما نجحت ، فسوف أظل محدوداً بجمهور يقرأ لغة واحدة . وصور لى طموحى أننى أستطيع أن أقهر ذلك التصور البخيل إذا ألقيت نفسى فى عالم آخر يتكلم لغة أخرى ، وألقيت بمواهبى أمام جمهور آخر ، جمهور لا تحده حدود وتنتشر لغته فى جميع أطراف المعمورة .

صور لى طموحى إذن أننى إذا نجحت فى الكتابة بلغة (عالمية) فإننى أستطيع أن أحلم بأن أصير فناناً عالميًّا .

السبب الثانى هو نوع من سوء المصادفات المضحك ، أو الذى يبدو الآن مضحكا ، ولو أنه طالما آلمنى وصور لى وجودى كله ومستقبلى كله فى صور مظلمة شائهة .

فقبل هجرتى بست سنوات صدر قرار بنقلى من وظيفتى بالقاهرة إلى إحدى مدن الوجه القبلى . ولما كنت لم أغادر القاهرة فى حياتى – إلا لمزاجى – فقد جاء هذا النقل صدمة لكل أعمدة حياتى . يضاف إلى ذلك أن اهتماماتى بالمسرح والأدب والصحافة لم تكن لتجد مجالها إلا فى القاهرة .

وتصورت عند نقلى أنها صدمة عابرة ، وأننى أستطيع أن أعود إلى القاهرة بعد مضى بعض الوقت . ولكن كل ما يحدث ، أو كل ما يستطيع أن يحدث ، من عقبات حدث لى حتى لا أعود إلى القاهرة .

جربت كل وسائل التغيير من طلبات للنقل وللندب وللبدل وللاستقالة ، وللتعيين الجديد ، ولكن لا فائدة ، كأن الدنيا كلها قد اجتمعت لتجعل بعدى عن القاهرة مصيراً أبديًّا .

وبعد سنوات من محاولات النقل المستمر والانتظار والأمل واللهفة والترقب وخيبة الأمل والمحاولة من جديد والفشل من جديد ، شعرت بأن أعصابي قد انهارت وبأنني لن أستطيع أبداً أن أغير هذا الوضع ولن أستطيع أبداً أن أقبله .

قلت لنفسى إنه إذا كان قد كتب على أن أحرم من وجودى فى القاهرة فليكن هذا الحرمان حرماناً حقيقيًّا ، حرماناً يباعد بينى وبينها آلاف الأميال لا عشرات الأميال.

هكذا وجد منى الحديث العابر مع زميل فى العمل أرضاً خصبة للتفكير الجاد فى الهجرة ، وبدا ساعتها أن الهجرة هى الحل الموفق السعيد لوضعى الغريب . وبنفس الحماس الذى أتناول به كل شيء بدأت المشروع الجديد . وما أسرع أن ذهبت إلى مكاتب السفارات التى توافق على الهجرة إلى بلادها . ولم أجد سهولة فى الاستعلام وتقديم طلب الهجرة إلا فى مكتب الهجرة التابع لأستراليا .

ملأت الطلب الحافل بأسئلة لا أول لها ولا آخر ، ثم قدمته فى اليوم التالى . ولم تمض أيام حتى جاءتنى رسالة تدعونى لاختبار المقابلة الشخصية التى لم تخرج عن تكرار الأسئلة والأجوبة الواردة فى الطلب الأول . ثم انتهت المقابلة بابتسامة وبتذكيرى بأننى أسافر على حسابى فى حالة الموافقة على سفرى .

ولم أكن أتصور غير ذلك منذ بداية تفكيرى فى الهجرة فوافقت وعدت إلى البيت أنتظر ما يأتى به الغيب .

وتمخض ذلك الانتظار عن دعوة جديدة للكشف الطبى الذى انقسم

إلى مرحلتين ، الأولى للكشف الباطنى ، والثانية للكشف بالأشعة ، ثم قيل لى فى النهاية إن هذه هى آخر مرحلة . وعلىّ الآن أن أنتظر أربعة أشهر حتى يأتينى التصريح بدخول قارة الأحلام .

وتعوذت بالصبر الجميل فى هذه المدة الباقية حيث بدا أنه لا حيلة فى تغييرها ، وإن كنت لم أحتج إلى هذا الصبر الجميل . فبعد شهر واحد فوجئت بالتصريح النهائى يصلنى فى خطاب رقيق من مكتب الهجرة .

وكان التصريح يسمح لى بدخول أستراليا فى خلال مدة سنة من تاريخه ، ولكنى لم أنتظر . ولماذا أنتظر ؟ لقد تحققت أحلامى بصورة باهرة ، وجاءتنى موافقة (عالمية) بعد ست سنوات من الرفض القاطع لكل طلب بسيط أتقدم به .

سلمنى مكتب الهجرة خطاباً (إلى كل من يهمه الأمر) يفيد بأن إقامتى وسكنى وعملى مكفولة عند وصولى إلى أستراليا . وأمام أسباب الطمأنينة هذه سارعت بتقديم استقالتى من عملى واستخراج جواز السفر ، وأنهيت إجراءات التصريح بالخروج فى أيام ، ثم ودعت أهلى وأصدقائى ، وركبت الطائرة فى الساعات الأولى من صباح أحد أيام يناير .

وهأنذا فى الطائرة أخيراً حقًّا . وقد زالت عنى رهبة الموقف ، ونظرت من النافذة المجاورة لى لأرى الطائرة فوق السحب ، ويخيل إلىّ من فرط سرعتها أنها واقفة فى مكانها . وأرى من خلال السحب بحاراً وجبالاً تبدو وكأنها خريطة باهتة فى أطلس مدرسى قديم .

وبدأ ضوء النهار يدخل من النوافذ الضيقة وبدأ الركاب يستيقظون

وجاءت المضيفة لتقدم لنا الفطور ، وهو كأس شراب له لون المانجو وطعمه به مزوزة غريبة . وصدمني هذا الطعم عندما تذوقته لأول مرة . وظل يصدمني دائما حتى بعد أن عرفت أنه عصير الأناناس . .

ومع شراب الأناناس جاءتنا صينية بها أطباق ميكروسكوبية بها ما يكاد يكون « عينات » من الطعام . ولم يكن هذا ما تصورته عن طعام الطائرة ، ولكني جاريت من حولي وأكلت ذلك الطعام الذى تركني أكثر جوعاً مما كنت عندما بدأت في تناوله .

« تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » . . هذا ما قلته لنفسى عن المضيفة التي طلبت منها مزيداً من هذه الوجبة المضحكة ، فنظرت إلى باستغراب شديد ، وكأنني أطلب شيئاً منكراً . ثم عادت على مضض وقدمت لى بعض الفتات أكلته حتى لا أتعرض للجوع فى هذا السجن الطائر .

ثم جاءت أول محطة للطائرة : (كوالا لامبور) ، وقيل لنا إن المدة المسموح لنا بالخروج فيها هى ثلاثة أرباع الساعة ، ثم أعطونا تذكرة صغيرة تسمح لنا بتناول شراب مجانى فى مطار (كوالا لامبور) .

وخرجت من الطائرة لتقابلنى شمس متوهجة وقيظ شديد ووجوه سمراء . قصدت بوفيه المطار ، وتناولت الشراب المجانى (الوحيد) فى البوفيه . الأناناس مرة أخرى . . ثم عدت إلى الطائرة . ومن كوالالامبور صعد راكب جديد أسمر ذو عين وجلس بجانبي . واحدة وملامح قاسية . ورحبت به وتصورته مهاجراً مثلى ، ولكن اتضح أنه موظف رسمى فى كوالا لامبور . سجان على وجه التحديد، وأنه ذاهب فى مهمة رسمية فى هونج كونج .

وحكى لى صديقى السجان الشىء الكثير عن بلاده وعن مشا كلها السياسية والاجتماعية وعن كفاحه هو ضد قوى الاستعمار أو قوى التحرير لا أدرى .

ثم جاءت هونج كونج أخيراً وهبط فيها .

وتوالت المطارات ، وتوالى شراب الأناناس كأنه (قسمة ونصيب) . وفى النهاية وصلنا إلى أول مطار فى أستراليا مطار (أدليد) .

وجاء هذا المطار بعد المطارات السابقة مفاجأة مذهلة . قطعة رائعة من فن المعمار ، عامر بكل أسباب الفخامة الحضارية والذوق الجميل . وشربت الأناناس دون أن أشعر بمزوزته وأنا مبهور بألوان الجمال التى تحيط بى ، وكأنى فى متحف فنى بديع . هذه هى أستراليا إذن أرجو أن يصدق المثل القائل : (الخطاب يقرأ من عنوانه) .

ومن (أدليد) صعد الطائرةشاب أسترالى جلس بجانبى و بدأنى الحديث فى ألفة و بساطة ، فأخبرنى أنه جندى عائد من حرب فيتنام بعد سنوات من البعد عن وطنه . ووجدته ساخطاً على الحرب وعلى فيتنام وعلى كل ما ينتمى إليها . ولكنى لم أنجح فى أن أعرف منه شيئاً عن طبيعة الحياة فى أستراليا ، فإنه كان يجيب عن كل سؤال بما يشبه النكتة والدعابة ، ثم يغير ما يقول ، ثم يتفرع إلى حديث آخر . وفى النهاية عرفت أننى لم أعرف منه شيئاً ، ولا غرابة فى ذلك فلعله هو نفسه لا يعرف شيئاً عن بلاده . .

ثم وصلنا إلى المطار الأخير للطائرة : (سيدنى) الذى لم يكن المطار الأخير بالنسبة لى ، فقد كنت أقصد (ملبورن) . لماذا ؟ لست أدرى . .

فى سيدنى مررنا بموظفى الجوازات والجمارك مرور الكرام ، فلم يفتح أحد لنا حقيبة ولم يفتش جيباً . وكان الاستقبال رقيقاً مهذباً ترك فى نفسى

أثراً بالغاً ، وكان على أن أستقل الطائرة المحلية . . من (سيدنى) إلى (ملبورن) وهذا ما قلته لموظف الجمارك المهذب الذى تولى حمل حقائبي بنفسه ونقلها إلى الطائرة الأخرى فى دماثة غريبة جعلتنى أقول فى نفسى إنه إذا كان الأستراليون جميعاً على شاكلة هذا الملاك فإن هذه هى الجنة حقاً . .

ثم تركنى الملاك ومضى إلى حال سبيله ، وركبت الطائرة الصغيرة التى بدت كاللعبة الخشبية الصغيرة بالقياس إلى الطائرة الضخمة التى تركتها لتوى .

حتى المقاعد فى الداخل كانت صغيرة متلاصقة كأنها « صالة » سينما أنشئت على عجل . ومرة أخرى جاءت جلستى بجوار النافذة . وجلس بجانبي زوجان فى أواخر السن . وما كان أشد دهشتى عندما عرفت أنهما من مصر ، وأنهما هاجرا إلى أستراليا منذ عشر سنوات . حادثانى بعربية متكسرة وسألانى عن كل شيء فى مصر بشوق وحنين .

كان الرجل يبدو عجوزاً لطيفاً ، أما الزوجة فقد كانت تتصنع الشباب وترتدى ثياباً زاهية الألوان . طمأنانى على طبيعة الحياة فى أستراليا وعن سهولة الحصول على عمل ، ولاحظت فى أثناء الحديث أنهما عاشا فى مصر حقاً ، ولكنهما لم يحملا الجنسية المصرية . . ثم حلقت الطائرة فى سماء (ملبورن) بعد قرابة ساعة ، وعند ذلك رأيت من النافذة أجمل منظر رأيته فى حياتى . ملبورن . . دائرة هائلة من الخضرة اليانعة تتخللها أو لا تكاد تتخللها مبان صغيرة ذات أسقف حمراء اللون ، حتى خيل إلى أن ملبورن حديقة كبيرة وليست مدينة . ثم اتضح المنظر بالتدريج ، وإذا

بملبورن فعلا حديقة ضخمة تتناثر فيها المبانى والشوارع والأنهار .

وظهر مطار ملبورن ، وهبطت الطائرة ، وأرشدنى أصدقائى الجدد إلى أن أركب أتوبيس المطار ليوصلنى إلى قلب المدينة . أما هما فقد ركبا سيارتهما الخاصة التى كان ينتظرهما بها ابنهما . حملت حقائبى وركبت « الأتوبيس » الصغير الأنيق الذى لا يوجد به كمسارى وإنما السائق هو الذى يحصل ثمن التذاكر ودفعت ثمن التذكرة (نصف دولار) . وكان هذا أول مبلغ أنفقه فى أستراليا .

جلست فى « الأتوبيس » وأنا أشعر بتعب شديد ، فلم أكن قد نمت ساعة واحدة فى الاثنتين والعشرين ساعة التى استغرقتها الطائرة فى الوصول من القاهرة إلى سيدنى ، ولكنى أخذت أطمئن نفسى بأننى بعد قليل سوف أصل إلى قلب المدينة ، وأجد رجال الهجرة فى انتظارى لإرشادى إلى محل راحتى وإقامتى .

وانتهى « الأتوبيس » من رحلته ، ووقف فى فناء واسع هبط فيه الركاب . وحملت حقائبى الثلاث ونزلت . ونظرت حولى فلم أجد أحداً فى انتظارى . وانصرف الركاب جميعاً ، وانصرف « الأتوبيس » نفسه ، وبقيت وحدى .

أين رجال الهجرة ؟ هل وصلت إلى قارة خطأ ؟ ! !

انتظرت دقائق فلم يظهر أحد . ثم لحظت موظفاً فى كشك خشبى صغير ، فتقدمت نحوه وسألته عما إذا كان عنده علم بقدومى ، ولكنه نفى علمه بأى شىء ، كما نفى أن أحداً من رجال الهجرة قد حضر فى ذلك اليوم .

وما العمل ؟ علىّ إذن أن أذهب بنفسى إلى مكتب الهجرة . ولكنه

أخبرنى بأن اليوم الأحد العطلة الأسبوعية الرسمية ، وأن مكتب الهجرة وجميع الوزارات والمصالح فى إجازة . وتصورت أنه من المستحيل ألا يكون أحد موجوداً على الإطلاق فى مكتب الهجرة ، فطلبت منه أن يدلنى على مكتب الهجرة ، فأرشدنى إليه ، وكان على مسافة قريبة من الجاراج ، فتركت حقائبى عنده ، وخرجت من الجاراج إلى شوارع ملبورن لأول مرة .

كانت الساعة الثالثة ظهراً ؛ ولكن الشمس كانت مختفية ، والجو بارداً جداً ، والمطر يهبط على شكل رذاذ خفيف ، والشوارع صاعدة هابطة ، والمنازل مغلقة والمحلات مغلقة ، وكل شىء متلفع فى إطار من البرودة والفراغ وما يشبه الظلمة .

ولكن أشد ما أدهشنى كان ذلك الصمت المروع . الصمت الذى لم أعرفه قبل الآن قط . فلا صوت بشر ولا عربة ولا ترام ولا حتى طيور . صمت هائل مخيف يكاد الإنسان يحس به مادياً ملموساً ، كأن المدينة مهجورة ، أو كأن البشرية لم تدب على الأرض بعد .

سرت حسب إرشاد موظف « الجاراج » حتى وصلت إلى مكتب الهجرة ، ووجدت أمامه حديقة ضخمة كانت هى المكان الوحيد العامر بالأحياء . طيور بيضاء غريبة تطير على مستوى منخفض وتطلق صرخات غريبة روعت نفسى لشدة تأثيرها وسط الصمت الهائل .

ووجدت مكتب الهجرة مغلقاً ولا دليل على وجود إنسان فيه .

آه . . ماذا أفعل ؟

بدأ الخوف يتسلل إلى نفسى ثلجاً بارداً . فلم يكن فى جيبى إلا ثمانية جنيهات أو ١٦ دولاراً أسترالياً هى كل ما دخلت به أستراليا . ولم أكن

أعرف أحداً على الإطلاق فى أستراليا . كان خطاب مكتب الهجرة المطمئن فى جيبي . ولكن ما العمل الآن ؟ أين أقضى الليلة ؟ وعلى حساب من ؟ .

عدت إلى الجاراج وعرضت مشكلتى على موظف الجاراج (وهو المخلوق الوحيد الذى رأيته منذ وصلت). كان الموظف شاباً صغيراً مهذباً سريع الكلام سريع الحركة . . وقد طمأننى أولا إلى أننى ما دمت أتكلم الإنجليزية بطلاقة فلا خوف على . وأخبرنى بأنه كثيراً ما استقبل مهاجرين لا يعرفون من الإنجليزية كلمة واحدة . . ثم كان الحل الذى اقترحه لمشكلتى هو أن أقضى الليلة فى فندق على أن أذهب إلى مكتب الهجرة فى الصباح التالى .

وسألته عن إيجاز الغرفة فى الفندق فأجاب بأنه فى حدود خمسة أو ستة دولارات . وتراجعت فى ذعر فلا أستطيع إنفاق رأسمالى الوحيد (١٦ دولاراً) بهذه البساطة .

ثم طلبت منه أن يساعدنى فى العثور على أرخص محل للنوم . فاقترح على جمعية الشبان المسيحيين، إذ ليس هناك — فيما يعلم — ما هو أرخص من نفقاتها ، وافقت وحجز لى بالتليفون حجرة بإيجار (٣ دولارات) فى الليلة (ونصف دولار) للفطور .

اطمأننت إذن على قضاء الليلة ، وسألته عن مكان جمعية الشبان المسيحيين فاقترح على أن أركب تاكسى ، فكدت أشك فى سلامة عقله . . وعند ذلك تطوع بأن يوصلنى بسيارته إذ كان ميعاد عمله قد انتهى . قبلت عرضه فى امتنان . وبعد دقائق كنا فى سيارته بعد أن تركت حقائبى عنده لليوم التالى . .

سارت السيارة فى الشوارع الجميلة المهجورة . وأردت أن أجامله فأبديت إعجابى بالطابع (الإنجليزى) الذى يبدو فى كل شيء . ولكن هذه المجاملة أغضبته وفسر لى غضبه بأن الأستراليين (أو الجيل الجديد منهم على الأقل) يكرهون الإنجليز ، ويحاولون التخلص من تغلغل النفوذ الإنجليزى ، ونصحنى بألا أكرر هذا الخطأ أمام أى أسترالى مرة أخرى . .

حاضر . ماذا يهمنى أن يكره الأستراليون الإنجليز أو يحبوهم ؟ إن أمامى ألف مشكلة تتطلب التغلب عليها .

بعد دقائق كنا أمام جمعية الشبان المسيحيين ووجدتها بناء ضخماً جميلا فى ميدان واسع يطل على نهر (يارا) . وهناك تركنى الصديق الأسترالى ومضى . .

دخلت الجمعية وفى يدى حقيبة يد صغيرة بها ملابس خفيفة . وتقدمت من موظفة الاستعلامات وأخبرتها باسمى ، فأعطتنى مفتاح حجرتى بيد ، ومدت يداً أخرى قائلة : ٣ دولارات ونصف من فضلك .

صعدت إلى حجرتى فى الطابق الثانى بعد أن عبرت ممرات وجدت الصمت فيها أشد هولا من صمت الشارع . وفتحت باب الحجرة ودخلت وخلعت ملابسى وارتديت « بيجامة » ثم تمددت — أخيراً — على السرير ، وقلت لنفسى : أنا الآن فى أستراليا وفى جيبى ١٢ دولاراً ونصفاً ، ولا يعلم إلا الله ما يأتى به الغد .

ومن النافذة المقابلة لسريرى جاء الطائر الأبيض الغريب يحوم حول النافذة ويطلق صرخته الثاقبة ، فقلت لنفسى لعل هذا نوع من الترحيب .

لم أكن قد تناولت أى طعام منذ إفطارى فى الطائرة ، وكان عصير

الأناناس هو آخر شراب دخل معدتى . ولكنى لم أكن أشعر بجوع فى هذه اللحظة بل برهبة وذهول وإرهاق شديد . وما هى إلا لحظات حتى غابنى النعاس .

وسرعان مارحت فى سبات عميق .



سلطانية شاى

استيقظت من النوم العميق بعد ساعات .

ولم أدرك مكانى لأول وهلة بل تصورتنى ما أزال فى مصر . وشيئاً فشيئاً تمالكت حواسى ، وأدركت الحقيقة الباهرة ، الباردة جداً ، فقد شعرت بأننى فى ثلاجة ، فضلا عن الجوع الشديد الذى كنت أسمع عصافير بطنى تهتف به فى « كورال » جماعى طالبة الشبع .

ارتديت ملابسى وخرجت إلى الدور الأول وطلبت من موظفة الاستقبال أن تحدد لى موقع الجمعية حتى لا أضل الطريق إليها عند عودتى . أعطتنى الموظفة خريطة لمدينة ملبورن ، وحددت عليها بالقلم موقع الجمعية ، ثم أرشدتنى إلى أن أمشى فى شارع (سوانستون) الذى يمتد من بداية المدينة إلى نهايتها فى خط مستقيم ، والذى لا يمكن أن أضل ما دمت أسير فيه .

خرجت من الجمعية وفى يدى الخريطة كالسياح . استقبلنى عند خروجى رذاذ المطر الذى لم ينقطع . ثم عبرت ميدان الجمعية وعبرت جسر نهر (يارا) إلى ميدان آخر ، عرفت فيما بعد أنه ميدان محطة (فلندر) ، وهى محطة القطارات الرئيسية فى ملبورن .

ومن هذا الميدان بدأ شارع (سوانستون) على امتداد مستقيم مع جسر

نهر (يارا) . بهرتنى الأضواء المتعددة الألوان والمعروضات الجميلة ، ومعالم المدينة الرائعة ، ولكنى وجدت المحلات كلها مغلقة كما كانت منذ أن وصلت .

أين أستطيع أن أجد مكاناً أتناول فيه الطعام أو أشترى منه شيئاً ؟

لم أجد مطعماً ولا محل بقالة ولا مقهى مفتوحاً ولا أى شىء ، أو على الأقل لم أجد محلا يوحى شكله بأنه واحد من هذه .

جعلت أتقدم فى الشارع حريصاً طول الوقت على أن أنظر خلفى باستمرار لأتأكد أننى لم أبتعد كثيراً عن جمعية الشبان المسيحيين . وكلما تقدمت فى الشارع رأيت مزيداً من محلات المجوهرات والفراء والأزهار والكتب « والأنتيكات » وكل ما يمكن أن ينتجه البشر ، ما عدا الطعام ، أى طعام . .

وتقدم الوقت وأنا أذرع الشارع صاعداً هابطاً دون أن أجد غايتى . ومر بى بعض الناس ولكنى خجلت أن أسأل أحداً ، وتجرعت مرارة الوحدة والجوع على مضض حتى وقعت عينى أخيراً على محل مفتوح . محل حلويات مفتوح . كيف عميت عيناى عنه مع أنه فى أول الشارع ؟ وتذكرت المثل القائل : الغريب أعمى ولو كان بصيراً .

وقفت أمام المحل أدرسه وأدرس معروضاته . رأيت فى « الفاترينة » أنواعاً مختلفة من الحلوى ، وعلى كل قطعة سعرها . الحمد لله . لن أضطر إلى حرج السؤال أو المساومة .

بحثت بين الأصناف المعروضة عن أكبرها حجماً وأرخصها سعراً . فوجدت فطيرة بالتفاح بسعر (١٣ سنتاً) . عظيم . هذا شىء فى متناول

ثروتى . . دخلت المحل واشتريت ٣ فطائر وخرجت بها فى كيس من الورق .

ضمنت العشاء . بقى الآن أن أشرب الشاى . . ولم يخطر ببالى أن ذلك المحل نفسه يبيع الشاى ، فعدت أسير فى الشارع من جديد باحثاً عن مقهى أو ما يشابهه ، ودخلت فى تخبطى وتجوالى إلى مبنى محطة (فلندر) . ووجدت داخلها ممرات وأنفاقاً سرت فى أحدها ، وإذ بى أفاجأ بالشاى ، رأيت أشخاصاً يقفون وفى أيديهم أكواب كبيرة يشربون منها الشاى الساخن الجميل . ورأيت أمامهم ما يشبه البار وخلفه عاملة هى التى تبيع الشاى والقهوة والمشروبات المثلجة (إذا كان هناك مجنون يشرب شيئاً مثلجاً فى هذا الجو البارد) . تقدمت فى سعادة وطلبت كوب شاى ودفعت ثمنه (١٠ سنتات) أى ما يعـادل (٥ قروش) . ومن الشاى وفطائر التفاح حصلت على عشاء بديع وخرجت من المحطة قرير العين .

ماذا أفعل الآن ؟

الساعة ما زالت العاشرة فهل أعود إلى الجمعية ؟ وماذا أفعل هناك إلا أن أجلس بمفردى فى الحجرة الصغيرة الباردة ؟ ولكن ماذا أفعل فى الخارج وأنا لا أعرف أحداً ولا مكاناً أتجه إليه ؟ ولكن امتلاء معدتى ملأنى ثقة بنفسى وبالمستقبل . وكنت قد رأيت الترام يقطع شارع سوانستون ، فقلت فلأستكشف مدينة المستقبل . ركبت الترام الذى وجدته شبه خال . وسار الترام يقطع شارع سوانستون الطويل صاعداً حيناً هابطاً حيناً آخر كأنه يسير على تلال . وجاء « الكمسارى » وأعطانى تذكرة تقاضى ثمنها (١٣ بنساً) أى ثمن فطيرة التفاح . هذا تبذير لامبرر له ، والأفضل أن أغادر

الترام وأعود ماشياً ، لقد أنفقت فى هذه الأمسية ما لا يقل عن دولار من دولاراتى المعدودة .

غادرت الترام وعدت من جديد ، وأنا أحرص على ألا أنحرف عن شارع سوانستون إلى غيره من الشوارع ، وسرت أتفحص المحلات فأجد الغالبية منها محلات للمجوهرات التى تعرض أصنافاً لا نهاية لها من الحلى الذهبية ، ولاحظت أن لون الذهب مختلف عن لون الذهب المصرى ، فهو أكثر ميلا إلى البياض . إنه يشبه ما يسمى عندنا بالذهب الإفرنجى ، وكان فى أصبعى خاتم من الذهب المصرى أتيح لى فيا بعد أن أعرف أنه الوحيد من نوعه فى أستراليا .

وصلت إلى ميدان محطة فلندر ، وحرصت على أن أتناول كوباً آخر من الشاى ، ثم عبرت الكوبرى والميدان ، ودخلت الجمعية وصعدت إلى حجرتى . .

كنت أتوقع أن يتملكنى الأرق ، وأن أظل أتقلب فى الفراش مدة طويلة ، ولكنى وجدتنى أتثاءب وأغالب النوم . ولماذا أغالبه ؟ ألقيت بنفسى ، وقبل أن أدرى كان غطيطى يملأ الحجرة .

استيقظت فى السادسة صباحاً جائعاً – مرة أخرى – كالذئاب . وتذكرت أنى دفعت ثمن الإفطار ، فلبست ثيابى فى لحظات وخرجت ، ووصلت إلى المطعم فى الدور الأرضى ، ولكن وجدت المطعم مغلقاً . . وقرأت على الباب لافتة تقول إن الإفطار يبدأ من السابعة والنصف . .

خرجت من الجمعية وذهبت إلى محل الحلويات فوجدته مغلقاً . دخلت محطة (فلندر) وهبطت النفق ، فوجدت محل الشاى مفتوحاً

وهبط الشاى فى أمعائى ساخناً لذيذاً غريباً مؤلماً ، وشعرت فى هذه اللحظة بأن الدنيا كلها لا تساوى طبقاً من الفول ورغيفاً طرياً . . وربما بصلة خضراء ، ولكن أين منى هذه النعم الآن ؟

انتهيت من الشاى ، وخرجت إلى ميدان المحطة ، ووجدته مكتظاً بالناس الذين يسيرون فى سرعة مذهلة . عشرات من الناس يدخلون المحطة ومئات يخرجون منها . وقفت أتأمل هذه الصفوف الآلية وأنا أقول لنفسى : عما قريب أنضم إلى هذه الجموع النشيطة ، وأبدأ تكوين المليون دولار الأول من ثروتى . اشتريت جريدة وقرأتها دون أن أفهم عما تتحدث ، فلم أكن - فى ذلك الوقت على الأقل - أعلم شيئاً عن مجتمع أستراليا ومشاكله واهتماماته . ثم قرصنى الجوع بشدة بعد أن دخل هواء الصباح النقى رئتى وهفا على أمعائى الخاوية . نظرت إلى الساعة فوجدتها السابعة والنصف . آه . . إلى المطعم . .

وعلى باب المطعم قابلتنى الروائح الشهية والبخار المتصاعد من الآنية العامرة بكل خير . فدخلت وأنا أتعشم كل خير . وجدت المطعم مليئاً « بالترابيزات » التى يجلس حولها المفطرون على أطباق البيض واللحم والفاصوليا وأصناف أخرى . إذا كان من حقى أن أطلب ما أشاء بتذكرتى فسوف أطلب كل هذه الأصناف .

فى نهاية المطعم رأيت « طابوراً » متحركاً من الزبائن فى يد كل زبون صينية عليها أطباق فارغة ورأيتهم يمرون أمام سيدات تملأ كل سيدة طبقاً من الإناء الساخن الكبير الذى أمامها .

عظيم جداً . وقفت فى نهاية الطابور ورأيت الزميل الذى أمامى تناول

صينيته من دولاب فى طريق « الطابور » فأخذت صينية مثله ، ثم رأيته وضع على الصينية أطباقاً فارغة . . ففعلت مثله وسرت فى « الطابور » . .

وتحرك « الطابور » الساحر حتى وصلت إلى السيدة الأولى التى سألتنى ماذا تريد ؟ وظننت أنى يجب أن أبدأ بالشاى ، فقدمت لها الفنجان الفارغ وقلت : شاى من فضلك ، وإذا بها تنظر إلىّ نظرة غريبة وتسأل باستنكار : تريد شاياً فى هذا ؟ ولم أدرس استغرابها ، فأجبت : نعم . فكررت سؤالها وكررت إجابتى ، وأنا أشعر بحرج شديد . وبأن آمالى العريضة فى الإفطار الشهى تنهار بسرعة مخيفة . ولم ترحمنى المرأة بل استدارت إلى زميلتها وهمست لها وهى تشير إلىّ ، فضحكت الأخرى ثم همست الثالثة إلى الرابعة ووجدتنى فى النهاية مركزاً لهمس ساخر قاس لا أفهم له سراً . .

وعند ذلك جاءتنى النجدة من الرجل الواقف خلفى — أو لعله أراد أن ينتهى هذا الموقف ليحصل على إفطاره — فنبهنى إلى أن ما قدمته لأحصل على الشاى فيه ليس فنجاناً وإنما هو سلطانية للفاصوليا .

ونظرت إلى الفنجان المشئوم فوجدته حقاً سلطانية صغيرة بدون يد ، لم أنتبه فى ارتباكى الأول إلى الاختلاف الدقيق فحملتها على أنها فنجان . التهب وجهى وتمنيت لو تنشق الأرض وتبلعنى . ثم رأيت المرأة مازالت تنظر إلىّ فى سخرية وشماتة حبّبا إلى أن أقذف بالسلطانية فى وجهها . ولكنى أردت أن أصحح موقفى ، ولم أجد ما أقوله للساخرة القاسية خيراً من أن أقول : نعم أريد أن أشرب الشاى فى هذا .

ولكنها هزت رأسها فى إصرار ورفضت أن تعطينى الشاى وصممت على أن أحضر لها فنجاناً . حاولت أن أعود القهقرى إلى مكان الدولاب ،

ولكن الواقفين خلفى احتجوا وطلبوا أن أخرج من « الطابور » كلية وأبدأ من جديد .

خرجت من الطابور وبيدى الصينية الخالية ، وعبرت المطعم كله وأنا لا أكاد أرى ما أمامى لفرط ما يملؤنى من الخجل والغيظ والقهر . وعدت إلى أول نهاية الطابور واستبدلت بالسلطانية فنجاناً ، ووقفت فى الطابور أتحرك كالمذهول حتى وصلت من جديد إلى آنية الطعام . ورأيت الأصناف العديدة التى تملأ الأطباق من بيض بالجامبون إلى شرائح اللحم المقلية والفاصوليا ، ولكنى كنت قد فقدت شهيتى لكل شيء ، بل إننى كنت أشعر أنه لولا خوفى من أن أسبب عاصفة من الضحك الجماعى لألقيت بالصينية على الأرض وأطلقت ساقى للريح ، لأهرب من هذا المطعم اللعين وأستنشق هواء نقيًّا بعيداً عن هذه الروائح الشهية البعيدة المنال . هكذا لم أجرؤ على أن أطلب إلا فنجان شاى . وخرجت من الطابور وبيدى الصينية وعليها مجموعة من الأطباق الفارغة وفنجان ملىء بالشاى ، وجلست إلى منضدة خالية أتناول فطورى ، وبعد رشفات من فنجان الشاى اليتيم تجرأت على أن أنظر حولى لأرى تأثير وقع مغامرتى على الجالسين ، ولكنى لم أجد واحداً قط ينظر إلىّ . وكأننى غير موجود وكأن ما حدث لم يحدث .

رأيتهم يأكلون فى سرعة « ولهوجة » وانقطاع تام عن الدنيا كلها وانشغال مخلص كامل لعمليات القطع والمضغ والبلع ، ورأيت بعضهم يأكلون ويقرءون الجرائد فى نفس الوقت . فأتممت شرب فنجان الشاى (٥٠ سنتاً) وخرجت من المطعم إلى قاعة الجمعية .

أما تفسير هذا الموقف العدائي الغريب الذى وقفته منى عاملة المطعم فإنه – كما فهمته بعد – راجع إلى تعصب الأستراليين الشديد لعاداتهم وتقاليدهم ، حتى إنهم لا يسمحون للغريب بأن يخالف هذه العادات لحظة واحدة مهما كان حسن النية .

ولكن كان على أن أتعلم الكثير عن قارة العجائب فيما بعد .

أما فى هذا الوقت فقد كانت الساعة الثامنة وكان هدفى هو أن أذهب إلى مكتب الهجرة . ولم أكن أعرف الطريق من الجمعية إلى مكتب الهجرة بل لم أكن أعرف الطريق إلى « الجاراج » الذى تركت به حقائبى ، ولكنى كنت أحفظ الاسم عن ظهر قلب ، جاراج (أنا – سيتا) .

جلست فى « الصالة » وأشعلت سيجارة وقلت لعلنى أتعرف هنا إلى مخلوق يرشدنى إلى أى شيء . ومر بى الكثيرون ولكنهم كانوا دائماً فى عجلة شديدة ، والذى يجلس منهم يجلس ليفحص الجريدة فى سرعة غريبة ثم يقفز إلى التليفون أو إلى الخارج . وأخيراً رأيت شاباً قرأ الجريدة ثم انتهى منها ووضعها بجانبه وجلس دون أن يقفز هنا أو هناك ، بدأت فى التودد إليه بهذا السؤال : كيف حال الأعمال فى أستراليا ؟ ولكنه أجابنى إجابة سدت على كل طريق : (كويسة جداً) .

بلعت هذه الإجابة البرقية . ولم أجد مبرراً للتلكع فى الجمعية . فأعطيت موظفة الاستقبال مفتاح الحجرة ، فسألتنى عما إذا كنت أنوى أن أقضى ليلة أخرى فى الحجرة فأجبتها بأنى لا أعرف . وعند ذلك نبهتنى إلى أنه إذا حانت الساعة الثانية عشرة ظهراً ولم أبلغها بشيء فإن الحجرة تحجز على حسابى .

فى الأربع ساعات القادمة إذن على أن أصل إلى مكتب الهجرة وأن أجد إقامة مجانية ، فإن ثروتى قد تضاءلت إلى (عشرة دولارات ونصف) . أجبت الموظفة بأننى سوف أبلغها قبل الموعد المحدد ، ثم خرجت أحث السير وأنا لا أعلم فى أى اتجاه أسير .

كيف وصلت إلى مبنى وزارة الهجرة ؟ لا أدرى . ولكنى سألت ألف شخص فى الشارع حتى وصلت فى النهاية بعد ساعة على الأقل مع أن المسافة لا تستغرق دقائق .

ووجدت مكتب الهجرة مفتوحا هذه المرة والدخول والخروج منه على قدم وساق ، اليوم الاثنين . بداية الأسبوع فى أستراليا .

دفعت الباب الزجاجى الكبير ودخلت وأنا أشعر باطمئنان كأننى فى بيتى ، وقرأت اللافتات المختلفة ثم اخترت المكتب (المختص بشئون المهاجرين) ودخلت فيه .

لم أجد فى المكتب إلا امرأة عجوزاً ذات عينين سوداوين بارزتين وأنف بارز وشعر أبيض ، قدمت نفسى إليها وأخبرتها بقصتى . واستمعت المرأة إلى بوجه جامد وهى تهز رأسها بتعجل وملل ، وفى النهاية أخرجت لها خطاب مكتب الهجرة ، ولكنها قرأته بنفس الوجه الجامد ثم أعادته إلى وسألتنى : ماذا تريد ؟

يا حلاوة . . . ماذا أريد حقا ؟

قلت لها بهدوء : أريد تنفيذ الكلام الوارد بالخطاب . أريد الإقامة والعمل . ولكنها هزت رأسها نفياً وقالت : ليس لنا بك أى صلة . ماذا ؟ كادت الإجابة أن تصعقنى ، ولكنها كررت كلامها بوضوح

غريب . انفعلت وارتفع صوتى ، ولكن لا فائدة . لم تتزحزح المرأة عن موقفها شعرة واحدة . وسرعان ما انضم إليها موظفون آخرون أكدوا كلامها . وختمت المرأة الموضوع بهذه الجملة : لقد سمحت لك أستراليا بدخولها ، وأنت الآن فيها ، فابحث لنفسك عن إقامة وعن عمل . منك لروحك .

خرجت من مكتب الهجرة وأنا أكاد أفقد عقلى . لقد انهارت آمالى كلها ، منى لروحى ! ! هذا ما قالته الشمطاء المجنونة . لقد اجتمعت ضدى كل عجائز أستراليا فى هذا اليوم فيما يظهر . منى لروحى . . وكل ما فى جيبى لا يكاد يكفينى أكثر من يومين مع الاقتصاد الشديد والاكتفاء بالشاى كغذاء أساسى .

منى لروحى . . وقد دفعت (٥٠٠ دولار) لأصل إلى أستراليا وهأنذا فى الشارع ، وحقائبى فى مكان لا أعرف كيف أصل إليه ، وثيابى فى مكان لا أعرف كيف أصل إليه . وحياتى نفسها لا أستطيع الاطمئنان على امتدادها أكثر من يومين . منى لروحى ! !

وجدت بواباً يقف أمام باب الوزارة وهو يصفر سعيداً ، فسألته عن مكتب العمل ، فقال إنه فى ميدان (فلندر) . أنا أعرف ميدان (فلندر) ولكن كيف أصل إليه من هنا ؟ وصف لى الرجل الطريق وهو يتراقص فى وقفته ، ولم أفهم حرفًا واحداً من وصفه ، واكتفيت بوصفه لبداية الطريق ثم سرت فى الطريق أسأل كل من أقابله حتى وصلت أخيراً إلى مكتب العمل .

دفعت الباب ودخلت فوجدت صالة هائلة . الجزء الأمامى منها

مخصص لطالبي العمل ، والباقي لمكاتب الموظفين . تقدمت لأقرب موظف وأخبرته بأنني أبحث عن عمل ، فكتب اسمي في ورقة ثم طلب مني أن أجلس لأنتظر دوري .

جلست بين زبائن المكتب وجعلت أتفحص (زملائي) طالبي العمل فوجدتهم لا يصلحون لشيء إلا لتمثيل أدوار القتلة والمجرمين في أفلام العصابات . وجوه شائهة وذقون غير حليقة وملابس قذرة ممزقة . رباه هل أنا واحد من هؤلاء ؟

استمعت إلى أحاديثهم يتكلمون لغة تبدو كالإنجليزية ولكنها ليست إنجليزية . كانوا يتحدثون بالأسترالية التي هي عامية غريبة لا يمكن أن يفهمها غيرهم ، وبعد فترة فقدت الأمل في أن أفهم حرفاً واحداً مما يقولون . وبالتالي في أن أتعرف إلى واحد منهم . .

ثم سمعت الموظف ينادي اسمي ، فجريت إليه ، وعند ذلك أخبرني بأنه ناداني قبل الآن فأين كنت ؟ أين كنت ؟ إنني لم أغادر مكاني فهل ناداني دون أن أسمع ؟ غير معقول . وعلى أي حال فقد أمرني بأن أذهب إلى المكتب رقم (٤) لمقابلة الموظف المختص .

وجدت الموظف المختص شابًّا صغيراً كتلاميذ المدارس مؤدباً بغير حدود ، باسماً كأنه صديق قديم ، ونزلت مقابلته اللطيفة برداً وسلاماً على نفسي المشتتة ، فأخبرته عن مؤهلاتي وخبراتي وطلبت منه وظيفة مناسبة . واستمع إليّ الموظف في أدب واهتمام ، وفي النهاية قال لي إنه من الصعب أن يجد لي وظيفة مناسبة بسرعة . وعند ذلك صرحت له بموقفي الدقيق وقلت له إنني يجب أن أجد أي عمل بأقصى سرعة . ففتح

درجاً أمامه وأخرج منه « كروتا » عديدة هى بيان بالوظائف الخالية الواردة إليه من المصانع والشركات ، ثم تفحص الكروت وسألنى : هل تقبل وظيفة (ضابط بريد) ؟ ضابط بريد ؟ إننى أقبل أى شيء . أمسكت بهذه الفرصة بيدى وأسنانى فكتب لى خطاباً إلى هيئة البريد ، ووقعه وختمه بخاتم المكتب ، ثم وصف لى المقر الرئيسى لهيئة البريد وكان على بعد خطوات من مكتب العمل .

خرجت من المكتب رقم (٤) وفى يدى الخطاب السحرى ، وسرعان ما وصلت إلى هيئة البريد ودخلت وسألت عن موظف المستخدمين فقيل لى إن هناك موظفين فى حجرتين مختلفتين ، وكلاهما مختص بشؤون المستخدمين . وصلت إلى الحجرتين ونظرت فى الأولى فوجدت الموظف جالساً وأمامه طالب وظيفة ونظرت فى الثانية فوجدت الموظف يجلس بمفرده .

طرقت الباب ودخلت وقدمت خطاب مكتب العمل إلى الموظف الذى قرأه ثم وافق على تعيينى . . . وتنفست الصعداء أخيراً . وبدأ الموظف يكتب لى خطاباً لأستلم به وظيفتى التى أخبرنى بأنها ستبدأ من الثانية بعد ظهر نفس اليوم . ثم انتهى من كتابة الخطاب ووقعه ووضعه فى ظرف . ومددت يدى لأتسلم الخطاب ، ولكنه سألنى كأنما تذكر شيئاً عابراً : كم مضى عليك فى ملبورن ؟ فأجبته بأننى وصلت إلى أستراليا فى اليوم السابق ، وعند ذلك سحب يده ومزق الخطاب وألقاه فى سلة المهملات .

سألته لماذا فعل ذلك ؟ فأجاب بأنه غير معقول أن أصل إلى ملبورن

فى يوم لأشتغل فى اليوم التالى فى هيئة البريد . البريد بالذات . وأنا لا أعرف أسماء الشوارع والمدن والقرى .

اللعنة على أسماء الشوارع والمدن والقرى . . حاولت أن أجادله ولكنه كان قد تحول إلى صنم جامد .

خرجت من المكتب الذى لمست فيه السعادة لحظة ووجدت نفسى فى الشارع من جديد .

كانت الساعة قد شارفت الحادية عشرة ، وبعد ساعة يكون على أن أدفع (٣ دولارات ونصفاً) لجمعية الشبان المسيحيين إذا لم أعثر على إقامة فى غيرها .

ازدحمت فى نفسى مشاعر الغيظ والغضب ولم أجد من أصب عليه سخطى وأتشبث بخناقه إلا مكتب الهجرة . قررت أن أعود إلى مكتب الهجرة ولا أخرج منه إلا قاتلا أو مقتولا . ووصلت هذه المرة فى دقائق ، ثم دخلت المكتب الذى بدأت منه متاعبى . ولم أجد المرأة العجوز بل وجدت موظفاً آخر استقبلنى فى رفق وأدب ، وقرأ الخطاب العتيد الذى غير حياتى ثم أعاده لى وأخبرنى بمعلومات مغايرة تماماً لكل ما سمعته منذ وصولى .

أخبرنى بأنه حتى بدون هذا الخطاب فإن مكتب الهجرة متكفل بإقامتى وتوفير العمل لى ، فهذا ما يفعله المكتب مع جميع المهاجرين ، لم إذن لم يستقبلنى أحد من مكتب الهجرة فى المطار ؟ لأننى وصلت بالطائرة والمهاجرون عادة يصلون بالبواخر لأنها أرخص ثمناً . أو أن هذا على الأقل ما يتصوره مكتب الهجرة . فالمهاجر فى نظر مكتب الهجرة شخص

فقير ليس أمامه إلا أن يصل بالباخرة لا الطيارة كما يفعل السياح ، كيف كان لى أن أعرف ذلك ؟ أخبرنى الموظف الباسم بأن المهاجرين جميعاً يعلمون ذلك وأنه – شخصياً – لم يسمع بمهاجر وصل بالطائرة ، ما علينا . قلت له : ها هو ذا مهاجر وصل بالطائرة وهو حائر لا يعرف له رأساً من رجل . فطمأننى بأن المكتب سوف يجد لى عملا بالتأكيد . وأخبرنى أيضاً بأننى أخطأت فى ذهابى لمكتب العمل فى شارع (فلندر) لأن هذا المكتب مختص بالأعمال اليدوية ، أما وظائف أصحاب المؤهلات العليا فهى فى مكتب آخر فى نفس مبنى مكتب الهجرة .

كل هذا جميل . ولكن لِمَ استقبلتنى هذه المرأة البغيضة بهذا الشكل فى الصباح ؟ هذا ما لم أعرفه عندئذ ولا بعدئذ ومالا أجد له تفسيراً إلا أنها صهيونية . .

والآن أين الوظيفة العالية ؟ أخبرنى بأنه ليس مختصًّا بالتوظف ، ولكنه سوف يحجز لى موعداً مع (مستر آدمز) المختص ، ثم رفع سماعة التليفون وطلب مستر آدمز وحجز لى معه موعداً فى الرابعة بعد الظهر أخبرته بأن هذا موعد متأخر جدّاً ، وأننى يجب أن أحدد موقفى قبل الثانية عشرة ، ولكنه قال إن مستر آدمز رجل مشغول جدًّا وإنه بصعوبة حجز لى ذلك الموعد فى نفس اليوم . (كتر خيرك) شكرته وخرجت ولم أفكر أن أطلب منه أن يساعدنى فى الإقامة بعد أن عرفت أن إقامة المهاجرين هى فى معسكرات فى ضواحى ملبورن التى سوف تبعدنى عن مجال الوظائف .

وفى الردهة الخارجية وقفت أتفحص اللافتات المكتوبة من جديد

فعثرت بينها على هذه اللافتة (مكتب وظائف المؤهلات العليا) بالدور الرابع . لم لا أجرب حظى قبل موعدى مع مستر آدمز ؟ دخلت المصعد وصعدت وخرجت ودخلت فوجدت موظفة الاستقبال تتحدث مع شخص فجلست فى مكانى حتى تفرغ الموظفة إلىّ .

لابد مما ليس منه بد ، فلأبق إذن فى جمعية الشبان المسيحيين . ولأقتصد حتى الموت حتى لا أنفق ثروتى كلها فى ليلة واحدة . ولعل ميعاد مستر آدمز أن يتمخض عنه شيء مفيد . لم أكن سعيداً .

قلت لنفسى إن ما فعلته جنون مطبق . منذ يومين كنت فى منزلى معززاً مكرماً ، وهأنذا الآن فى هذه القارة التى لا أعرف فيها مخلوقاً أجد نفسى حائراً ضائعاً كالطفل الضال الجائع . نعم إننى جائع حقًّا . وعطش أيضاً ، ولكن ما أشعر به من إرهاق وقهر لا يترك لى مجالا للشعور بشيء آخر .

ترى كيف تمضى هذه الأزمة ؟ وهل تمضى حقًّا ؟ هل يأتى يوم أذكر فيه هذا اليوم وأضحك منه ؟ هل تتحول هذه التجارب المرة الساحقة إلى كلام على الورق ؟ إن كل ما أطلبه هو جسر صغير من المساعدة أعبر عليه هذه الأيام القليلة . أو هذا اليوم على الأقل إلى حيث أعمل وأربح ما أستطيع أن أقف عليه بقدم ثابتة .

يارب . .

وعند ذلك حدثت المعجزة . .

دخل المكتب شابان أحدهما متردد والآخر متحمس . ووقفا لحظة ، ثم جذب المتحمس المتردد وقال له : تعال إننا لن نخسر شيئاً .

قال له ذلك بالعربية . . إنهما مصريان إذن . نظرت إليهما وأنا لا أصدق عيني ، ونظرا إليّ ، وسرعان ما تصافحنا . كان المتردد هو (فهمي حافظ) والمتحمس هو (رشدى حنا) والاثنان من القاهرة ، وهما أول من صادفت فى أستراليا .

وعرفت أنهما وصلا إلى أستراليا منذ شهور ، وأنهما اشتغلا بعدة أعمال ثم عرفا مني موقفي وتطوعا بإرشادى إلى المساكن المفروشة التى لا تزيد قيمة الإيجار فيها على (٦ دولارات) للحجرة فى الأسبوع .

فرجت . خرجنا ثلاثتنا إلى الشارع الذى يسكنان فيه وهو شارع (دراموند) ، ووجدنا حجرة مفروشة جميلة مجاورة لهما فى منزل أنيق دفعت إيجارها فى الحال (٦ دولارات) ثم أخذت تاكسى إلى جمعية الشبان المسيحيين ووصلت فى الثانية عشرة بالضبط فسحبت ملابسى ، ثم ذهبت إلى جاراج (أنا — سيتا) حيث حملت حقائبي ، وعدت إلى حجرتى الجديدة . وأقرضنى رشدى (١٥ دولاراً) وأرشدنى إلى محال البقالة التى لم أرها من قبل ، لأن محل البقالة هنا اسمه (بار اللبن) ، وهى تسمية غريبة لا أجد لها معنى . من بار اللبن اشتريت شاياً وسكراً وطعاماً ، وعدت إلى حجرتى وأنا أشعر بالحياة تدب فى أوصالى متذكراً فى الوقت نفسه موعدى مع مستر آدمز فى الرابعة بعد الظهر .



شارع دراموند

إذن فالإنسان يستطيع أن يتنفس وأن يعيش وأن يملأ معدته فى أستراليا . . هذا ما قلته لنفسى وأنا أتناول أول طعام حقيقى منذ أن دخلت قارة أستراليا . وكان المنزل الذى سكنت فيه عبارة عن شىء جميل صغير له واجهة رمادية وحديقة خضراء ناضرة وضعت فيها (مسز كيرلى) صاحبة المنزل كلباً خشبيّاً أسود مفتوح الفم باستمرار كأنما ليخيف لصوصاً وهميين .

أما من الداخل فالمنزل عبارة عن دورين . الدور الأول به طرقة صغيرة ضيقة نسبيّاً بها ترابيزتان ، واحدة منهما لاستقبال خطابات الرجال والأخرى لاستقبال خطابات النساء من النزلاء (ولعل هذه هى التفرقة الوحيدة بين الجنسين فى أستراليا) .

وعلى يمين الداخل حجرة مسز كيرلى ، وبعدها مباشرة ممر يؤدى إلى فناء داخلى مكشوف به حجرة المكواة والمطبخ والحمام . ثم حجرة أخرى قائمة بنفسها وسط الفناء يطلق عليها اسم (بنجالو) .

وبجوار هذا الممر سلم خشبى مكسو بالمشمع المزخرف الجميل يؤدى إلى الدور العلوى الذى به خمس حجرات وحمام .

وكانت حجرتى هى الحجرة الداخلية المطلة على الفناء ، ويقع المطبخ

تحتها مباشرة . وكانت أرض حجرتى مكسوة بنفس المشمع المزخرف وتبدو لجمالها كأنها علبة هائلة الحجم من القطيفة ، وفى الحجرة سرير كبير ودولاب ومنضدة ومرآة وكرسيان . أما (مسز كيرلى) فقد وجدتها امرأة قصيرة عصبية بدون سبب كأنها ناظرة مدرسة . . وقد أوضحت لى شروط السكن عندها وهى : الدفع مقدماً فى بداية كل أسبوع . ثم دفع (٥ سنتات) لكل مكالمة تليفونية ودفع (٥ سنتات) لكل مرة أستعمل فيها الحمام الساخن .

وإذا أردت أن أنتقل من المنزل فلابد من إخطارها قبل انتقالى بأسبوع .

هذه هى الشروط ، وأما التعاقد نفسه فقد كان شفويًّا دون ورق أو كتابة ، وفيما عدا هذه الشروط فأنا حر أخرج وأعود متى أشاء . أستقبل من أشاء وأفعل ما أشاء . .

كان لهذه الشروط الإنسانية وللاطمئنان إلى خطواتى الأولى فى أستراليا أثر بالغ فى تهدئة مخاوفى وقلقى . وأعتقد أنه لولا ما قابلنى فى ساعاتى الأولى من سوء توفيق غريب فى كل شيء لكان لى رأى مختلف فى أستراليا ، فإن كل ما فيها معقول ومريح وإن كان غير مألوف للنازح الجديد .

ولعله قد حان الوقت لأن نعرف شيئاً عن أستراليا .

هى قارة صغيرة نسبيًّا (١٢ مليون نسمة) وسكانها الأصليون الذين كانوا يقطنونها فى العصور القديمة ويطلق عليهم اسم (أبو ريجينال) هم أغرب مخلوقات فى العالم ، فهم سود البشرة ولكن وجوههم قبيحة بشكل منفر ، وأذرعهم طويلة تكاد تصل إلى أقدامهم وعند ما يسيرون يتحركون كما تتحرك القرود !

و (الأبوريجنال) ليس لهم حضارة ولا تاريخ ولا معتقدات ثابتة معروفة . وعندما دخل الرجل الأبيض أستراليا لأول مرة وجدهم يعيشون فى الغابات كالحيوانات . لم يقاوموا الغزو الجديد ولم يرفضوا شيئاً ولم يقبلوا شيئاً بل ظلوا يفسحون الطريق للرجل الأبيض وينزحون نحو الشمال حيث المناطق الحارة التى تصعب الحياة فيها على الرجل الأبيض .

والباقى منهم الآن يعيش فى المناطق الاستوائية فى شمال أستراليا . نفس المعيشة التى كانوا يعيشونها منذ آلاف السنين ، إذ يبدو أنه لا أمل إطلاقاً فى جذبهم إلى المدنية ، وإن كانت الحكومة الأسترالية تحاول باستمرار ، صادقة أو كاذبة ، الله وحده أعلم — أن ترسل إليهم المبشرين والمعلمين والمدربين ، بل إن هناك جمعيات أسترالية متطرفة تنادى بالمساواة فى الحقوق المدنية بين (الأبوريجنال) والأستراليين الجدد . ومن وقت لآخر تنتقى منهم الحكومة (عينات) بشرية لتجرى عليها تجارب الذكاء والغباء والقدرة على التعليم . وإن كان من المؤكد أن هذه الطائفة الغريبة من المخلوقات فى طريق الانقراض لسوء التغذية وسوء التكيف مع البيئة الجديدة ولطغيان الحضارة الأوربية .

أما الأستراليون الجدد (أحفاد الإنجليز) فإن تاريخهم فى أستراليا بدأ منذ ٢٠٠ سنة بالتحديد ، وقبل ذلك التاريخ كانت إنجلترا تنظر إلى أستراليا كما ينظر المالك إلى قطعة من الأرض (البور) فى أملاكه ، لأن بعدها الشاسع عن أوربا ، وصعوبة الحياة فيها وصعوبة الوصول إليها كانت تقطع الطريق على كل محاولة لاستئناسها .

ثم حدث تضخم فى (سجون) إنجلترا على إثر الثورات وحركات التمرد ،

ولم تعرف حكومة إنجلترا ماذا تفعل بمئات المساجين الواردين إليها يومياً . عند ذلك تذكرت أستراليا . . فلتنقل إليها هؤلاء المساجين فإما ماتوا فى الطريق قضاء وقدراً (وبذلك يرتاح ضمير إنجلترا) ، وإما وصلوا إلى المنفى وهو مصير أقسى من الموت .

هكذا بدأت سفن (الشحن البشرى) تنقل آلاف المساجين والمسجونات من شواطئ إنجلترا إلى قارة أستراليا . وكانت السفن تقطع المسافة فيما لا يقل عن مائتى يوم ، وكان المساجين جميعاً مغللين بالقيود الحديدية ، وكانوا يلقون أقسى ألوان المعاملة فى هذه السفن الخشبية مما تسبب فى وفاة أعداد هائلة منهم قبل الوصول .

ثم كان يحدث فى هذه السفن نفسها ما يندى له جبين الإنسانية من فسق وفجور بين السجانين والمساجين والمسجونات . وهذه حقبة سوداء فى تاريخ إنجلترا .

وعندما تصل السفينة إلى شواطئ أستراليا فإنها كانت تلفظ شحنتها البشرية وتطلق لها السراح فى المجاهل الجديدة فلا قيود ولا سجون . أستراليا كلها سجن كبير دون قيود .

واستمرت عمليات الشحن ، وامتلأت موانئ أستراليا بالنزلاء الجدد ، الذين وجدوا فى أستراليا – على عيوبها – فرصة جديدة للحياة ، فتمسكوا بها وبدءوا يخططون لاستقرارهم الدائم فيها .

هكذا بدأت حياة الرجل الأبيض فى أستراليا .

حرث هؤلاء المنفيون الأرض وزرعوها ، وشيدوا المنازل ، وعبدوا الطرق ، وأنشأوا الجسور والكبارى والمدن وتحولوا مع الوقت إلى مواطنين

(عاقلين) يحبون الحياة الشريفة المستقرة ويحرصون عليها .

هؤلاء الأستراليون الجدد هم أنفسهم الذين ثاروا على إنجلترا فيما بعد ورفضوا أن يستقبلوا مجرمين جدداً . . ووقفوا فى وجه عمليات (الشحن البشرى) حتى لا يتشوه كل ما صنعوه بوجود هؤلاء المجرمين ،واضطرت إنجلترا أن ترسل شحناتها البائسة إلى منفى آخر . . إلى أمريكا . .

وكان ذلك فى سنة ١٧٦٧ ، وقد احتفلت أستراليا فى سنة ١٩٦٧ بمرور مائتى عام على آخر شحنة بشرية وصلت إلى أرضها .

وأرض أستراليا أرض (فائرة) كل ما فيها ينبت بخصوبة غريبة . كل شىء فيه نضارة رائعة ، وكأن الحياة تتفجر فى كل ما يعيش على أرضها .

أما أستراليو القرن العشرين فهم لا يختلفون عن الملائكة إلا فى أن الملائكة لها أجنحة . وهم شعب مهذب مشرق صادق لا يعرف الكذب ولا السرقة . .

هؤلاء هم الأستراليون الذين قابلتهم فى أستراليا بعد مائتى عام من استقرار أجدادهم الموصومين فيها .

وأستراليا تسمح بالهجرة إليها لجميع الأجناس ما عدا الجنس الأصفر . ومن المستحيل أن تجد بلداً على وجه الأرض ليس له مواطنون فى أستراليا .

وبعد أربعة أعوام ونصف من دخول المهاجر إليها يحصل على الجنسية الأسترالية ويصير له كل حقوق المواطن الأسترالى . وأينما حللت فى أستراليا وجدت عشرات الجاليات المختلفة، ولكن مصادر الهجرة الرئيسية إلى أستراليا (وربما إلى العالم كله) هى اليونان وإيطاليا ولبنان ، ولذلك فإنك قد تجد مدناً كاملة كل أهلها من الإيطاليين أو اليونانيين أو اللبنانيين .



على الشاطئ فى أستراليا

والحرية هى (الغذاء) الرئيسى فى أستراليا ، فالمواطن حر فى كل شىء . فى عقيدته . فى تصرفاته. حر فى أن ينتمى إلى أى ديانة أو ألا ينتمى إلى أى ديانة ، حر يلبس ما يشاء ويفعل ما يشاء . حر فى اختيار الوظيفة التى يريدها . حر فى تركها . حر فى البقاء فى الولاية التى يستريح فيها . حر فى هجرها . حر فى أن يقف على ناصية الشارع ليبشر بالمذهب الذى يؤمن به ، ولو كان هذا المذهب هو الهجوم على أستراليا .

وأكبر مدن أستراليا هى (ملبورن) و (سيدنى) ، وهما أكبر موانيها

فى نفس الوقت ، وإليهما يقصد معظم المهاجرين لأنهما مركز الأعمال والوظائف .

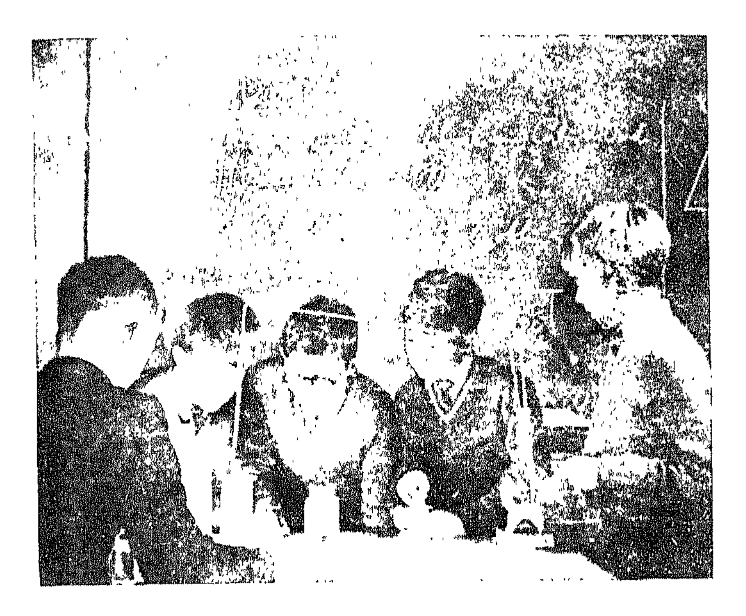
أما (كنبرا) فهى العاصمة التى تتوسط المسافة بين ملبورن وسيدنى .

و (كنبرا) مدينة من أجمل مدن الدنيا وأحدثها ، وقد ولدت فى أوائل القرن العشرين عندما تنبهت أستراليا إلى التطورات السياسية العالمية ، وشاءت أن يكون لها عاصمة سياسية وتمثيل ديبلوماسى . ثم ثار الخلاف حول اختيار مكان العاصمة ، وهل تكون (سيدنى) أم (ملبورن) حتى استقر الرأى على إنشاء عاصمة جديدة تماماً فى مكان متوسط بين المدينتين الكبيرتين .

هكذا ولدت (كنبرا) ، وبنيت على شكل دائرة هائلة خضراء تقوم فيها الشوارع والمبانى على شكل دائرى أيضاً . ولكنها اقتصرت على السفارات والقنصليات ، وخلت – تقريباً – من الوظائف التى تناسب المهاجرين .

وأستراليا بها ست ولايات (نيوسوث ويلز – فيكتوريا – كوينز لاند – سوث أستراليا – تاسمانيا – وست أستراليا) . ولا تختلف واحدة من هذه الولايات عن الأخرى فى احتياجها لكل خبرة فى كل مجال .

ونظراً لقلة كثافة السكان (١٢ مليون نسمة) بالنسبة لمساحة الأرض الهائلة فإن أستراليا ترحب بالمهاجرين من كل مكان ، وتذهب فى ذلك إلى حد أن تستجلب المهاجرين من بلادهم على حسابها . وإن كانت تشترط بعد ذلك أن يعمل المهاجر لمدة ٣ سنوات فى العمل الذى تختاره له ولابد لتنفيذ ذلك أساساً من وجود اتفاقية بين أستراليا وبين البلد الذى يصل أبناؤه بالمجان مثل إيطاليا واليونان .



الجيل الجديد فى أستراليا

والأعمال متوافرة فى كل لحظة وفى كل مكان فى أستراليا .

والسبيل الأول هو مكاتب العمل . وهى نوعان : الأول يختص بالعمالة العادية (النجارة – الحدادة – الكهرباء – السمكرة . . .إلخ) والثانى يختص بالشهادات العليا والمتوسطة . والشهادات من جميع البلاد معترف بها فى أستراليا بشرط أن تقدم مترجمة إلى الإنجليزية ترجمة معتمدة من السفارة الأسترالية أو الإنجليزية أو من بنك (نيوسوث ويلز) فى أستراليا الذى يساعد المهاجرين مجاناً ويترجم مستنداتهم من جميع اللغات إلى الإنجليزية وهى

اللغة الرسمية فى أستراليا .

وبعد تقديم الشهادة المترجمة إلى مكتب العمل يمر المتقدم بامتحان شفوى إذا جازه منح شهادة خريج من إحدى جامعاتها وإلا فإنه يدرس مادة أو اثنتين يمنح بعدها هذه الشهادة .

والعملة الأسترالية كانت الجنيه الإسترلينى إلى سنوات قليلة . ثم أصدرت أستراليا الدولار الأسترالى ، وهو يعادل (٥٠ قرشاً مصريًّا) ويحتوى على (١٠ شلنات) أو (١٠٠ سنت)

والحد الأدنى للمرتبات بالنسبة للعامل العادى هو (٤٢ دولاراً) فى الأسبوع وبالنسبة للجامعى (٨٥ دولاراً) . وأسبوع العمل خمسة أيام ، ويوما السبت والأحد إجازة رسمية . ووقت العمل فى اليوم (٨ ساعات) من الثامنة صباحاً إلى الخامسة بعد الظهر با[illegible] فترات استراحة للشاى وتناول الغداء .

وكل ساعة عمل (إضافية) تحتسب بساعة ونصف . ومن يعمل يوم السبت يتقاضى أجر يوم ونصف ، أما يوم الأحد فأجره يساوى أجر يومين .

وفى كل شهر مكافأة قيمتها أجر يوم وربع ، وفى كل سنة إجازة ثلاثة أسابيع بأجر بالإضافة إلى الأعياد الرسمية والقومية (وما أكثرها) وكلها بأجر .

وأبدع شىء فى هذا النظام كله هو تأمين البطالة وهو مبلغ (٨ دولارات) فى الأسبوع للمهاجر الجديد و (١٦ دولاراً) لمن حصل على الجنسية الأسترالية .

هذا التأمين يحصل عليه بمجرد خروجه من عمله (سواء كان هذا الخروج بسبب الاستقالة أو الفصل أو الرغبة فى البحث عن عمل جديد وحتى لو كانت مدة البطالة أسبوعاً واحداً) . .

والمعاش لكل مواطن (لا لكل موظف فقط) وهو معاش يحصل عليه المواطن بمجرد بلوغه سن الخامسة والستين حتى لو كان يعمل أو لو استمر يعمل .

ومدارس الأطفال بالمجان ، بل إن الحكومة تمنح الأم التى تبقى فى البيت لتربية أولادها دخلا أسبوعيًّا تشجيعاً على كثرة النسل .



الطيور الغريبة

والمواطن المثالى فى أستراليا هو المواطن الذى ينجب أكبر عدد من الأطفال . .

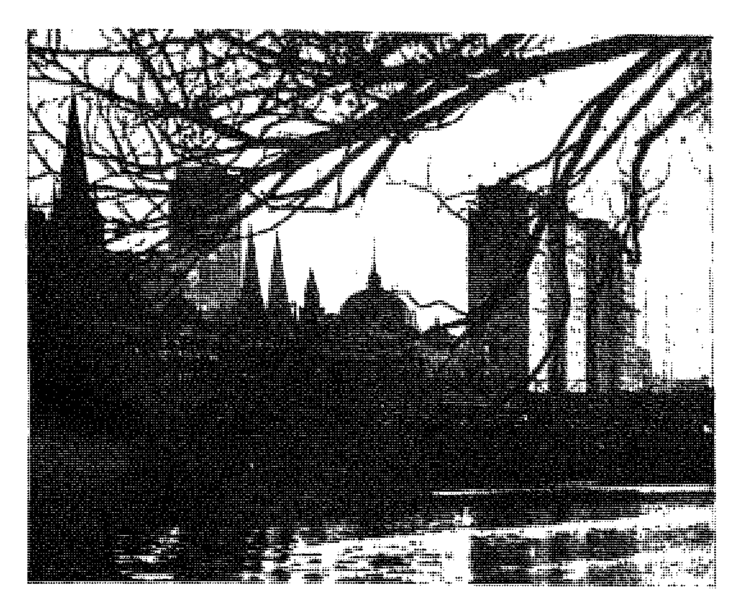
ويستطيع الفرد أن يعيش عيشة ممتازة فى حدود (٢٥ دولاراً) فى الأسبوع . فالغرفة المفروشة لا يزيد إيجارها على (٨ دولارات) فى الأسبوع ، والبدلة الصوفية الجاهزة فى حدود (٤٠ دولاراً) والحذاء (٤ دولارات) والخروف المذبوح (٤ دولارات) والدجاجة المثلجة (دولار ونصف) ودستة البيض (نصف دولار) .

والأستراليون لا يأكلون إلا اللحم الأحمر فقط . أما الكبدة والكلاوى والمخ وباقى أجزاء الذبيحة فإنهم يلقونها فى صناديق القمامة . ثم تعلموا من المهاجرين أن هذه الأجزاء صالحة للأكل فكفوا عن إعدامها ولكنهم لم يتعلموا أكلها . عرضوها للبيع فقط بأسعار مضحكة . .

أما الفواكه والخضراوات فإنها تباع مقطعة مجهزة فى أكياس أنيقة . وأما اللبن والشاى والسكر فأسعارها زهيدة لا تكاد تذكر .

والسيارة الجديدة تباع فى حدود (٦٠٠٠ دولار) ، أما المستعملة فقد يهبط ثمنها إلى (١٠٠ دولار) ، وكل شىء يباع بالتقسيط .

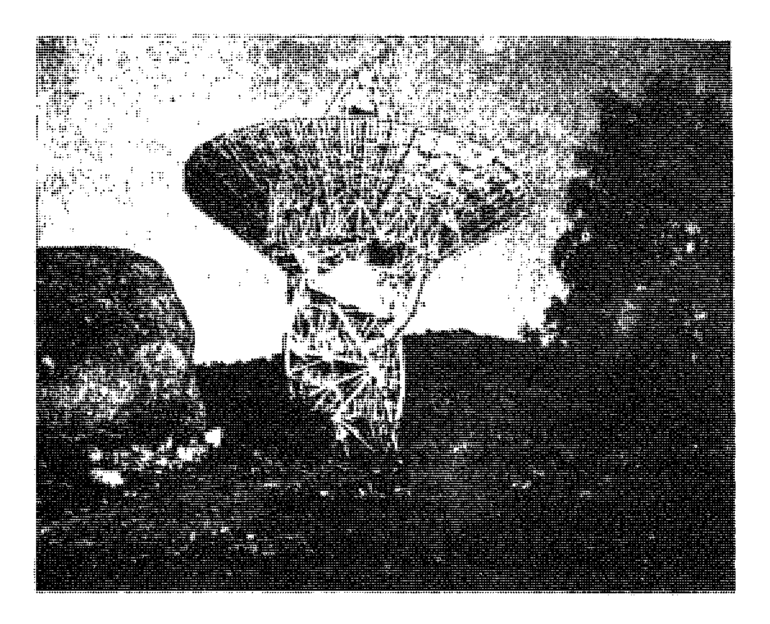
ولا يوجد فى مجال البيع والشراء شىء اسمه الخدمة (البشرية) ، فكل شىء يتم بطريقة آلية . محلات البيع تدخلها فلا تجد بائعاً أو بائعة وإنما تجد البضائع كلها مرتبة أنيقة وعلى كل سلعة سعرها ، فأنت تختار ما يعجبك وتضعه فى عربة يد وفى النهاية تحاسب على ما جمعت من مشتريات . هذه المحلات يطلق عليها اسم (اخدم نفسك) ، وهذا النظام نفسه يطبق فى محلات الغسيل ، وهى محلات كبيرة منتشرة فى جميع الشوارع ،



نهر يارا

وليس فيها موظفون بل غسالات كهربائية تعمل أتوماتيكيًّا عند وضع الأجر المحدد فى الخانة المخصصة له وهو (١٥ سنتاً) . وبعد نصف ساعة يخرج الغسيل نظيفاً معصوراً . ثم ينقله صاحبه إلى دولاب التجفيف فى مقابل (٥ سنتات) وبعد دقائق يخرج الغسيل جافًّا أربعة وعشرين قيراطاً .

ومكاتب العمل ليست هى الطريق الوحيد للحصول على عمل ، فإن الجرائد تنشر يوميًّا مئات الإعلانات عن مئات الأعمال والوظائف التى تناسب صاحب الخبرة وعديم الخبرة . فإذا قرأ طالب العمل إعلاناً عن وظيفة



محطة الرادار

تناسبه فإنه يتصل بصاحب الإعلان ويطلب منه تحديد موعد لمقابلة شخصية (ولا يمكن على الإطلاق مقابلة أى إنسان فى أستراليا دون موعد سابق) .

وفى المقابلة الشخصية يعرض الطالب مستنداته وخبراته ، فإن أعجب ذلك صاحب العمل وافق – فى الحال – على تعيينه وإلا فإنه يعتذر إليه حتى لا يضيع وقته . وما أثمن الوقت فى أستراليا .

والبنوك تنتشر فى كل مكان كما تنتشر محلات الكشرى والطعمية

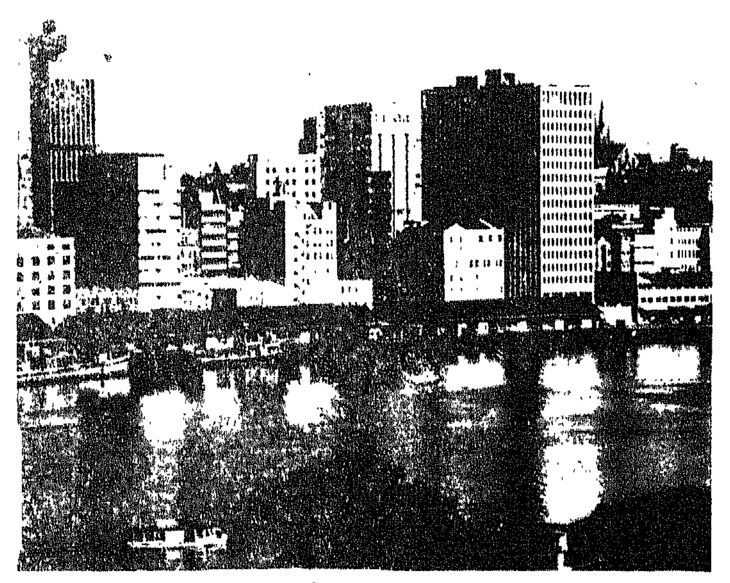
فى بلادنا ، والذى له حساب فى أحد البنوك تكون جميع فروع هذا البنك فى كل ولايات أستراليا تحت تصرفه .

وإجراءات البنوك تتم بسرعة مذهلة . والموظفون فى البنوك وفى جميع المصالح لا يختلفون عن الآلات الكهربائية إلا فى أنهم يتنفسون .

والموظف الأسترالى يعرف أنه يتقاضى أجره ليخدم الجمهور — فعلا — ولذلك فإنه فى أثناء أداء مصلحة أى مواطن يعتبر نفسه خادماً لهذا المواطن .

والجالية العربية فى أستراليا كبيرة لا أول لها ولا آخر (٦٠ ألف عربى) وهى تجمع بين اللبنانى والسورى والفلسطينى والعراقى والأردنى والمصرى . والمصرى هو (أحدث) مهاجر عربى فى أستراليا . وربما فى العالم كله . ولكنه يتميز بين مواطنيه العرب بأن نسبة الشهادات الجامعية بين زملائه هى أعلى نسبة بين باقى المواطنين العرب . ولعل السبب فى ذلك هو أن الهجرة فى بلادنا نظام حديث ، ولذلك أقبل عليها معظم الجامعيين . أما فى البلاد العربية الأخرى مثل لبنان فإن الهجرة منها (تقليد) قديم . والمهاجر اللبنانى يعتبر العالم كله مجالا مفتوحاً له . ويهاجر وهو شاب صغير ثم يلقى بنفسه فى غمار جميع الأعمال المناسبة وغير المناسبة ، بعكس المهاجر المصرى الذى تساعده شهاداته الجامعية وإتقانه اللغة الإنجليزية على اختيار الوظيفة المناسبة . .

وهناك تجمعات عربية كثيرة قد تختلف أسماؤها ولكنها تتفق فى النهاية فى أهدافها مثل (المركز الإسلامى) وهو فرع من مراكز (الاتحاد الإسلامى) الذى يشرف على المراكز الإسلامية فى ولايات أستراليا كلها . والمركز الإسلامى فى (ملبورن) يشرف عليه المواطن اللبنانى



المنشآت الحديثة فى أستراليا

(الشيخ فهمى الإمام) وهو يبذل جهوداً طيبة فى رعاية المهاجرين العرب ويقوم بخدمتهم فى الشئون الدينية ومراسم الزواج والوفاة . . إلخ . بالإضافة إلى الاحتفالات الدائمة بالمناسبات الدينية . ومن أحلام (الشيخ فهمى الإمام) بناء مدينة إسلامية تجمع بين المسجد والمدرسة وبيوت المسلمين . وهو يجمع التبرعات لذلك باستمرار . وقد تبرعت له الكويت أخيراً بمبلغ (٢٠ ألف جنيه) ثم تبرع له الأمير صدر الدين خان بشيك على بياض عندما زار أستراليا .

وهناك (الجمعية اللبنانية) وهى فرع من (الجمعية اللبنانية العالمية) فى أمريكا وكندا وأستراليا . ومن أهدافها الإشراف على العرب ورعاية شئونهم وتقديم المساعدات لهم فى خطواتهم الأولى . ويشرف على الجمعية اللبنانية فى ملبورن (الخورى بولس الخورى) .

وهناك (الرابطة العربية) وهى إحدى التجمعات العربية فى أستراليا . وهى بجانب اشتراكها مع التجمعات الأخرى فى أهدافها الطيبة فإنها رابطة (سياسية) تخطط باستمرار لمقاومة أكاذيب الصهيونية ، وتقف لها بالمرصاد ، وتهاجمها فى الجرائد والإذاعة والتليفزيون . وقد أنشأ الرابطة العربية فى ملبورن (الدكتور ناصح ميرزا) السورى الأصل ، وهو رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط فى جامعة ملبورن .

وقد أضيف إلى هذه التجمعات فيما بعد جمعية جديدة باسم (أضواء القاهرة) كان لى الشرف أن أكون مؤسسها ، وأن أقدم المسرح العربى بها لأول مرة فى أستراليا .

أما فى هذه اللحظة فإننى لم أكن أعرف شيئاً قط ، كل ما كنت أعلمه هو أن معدتى قد امتلأت وأننى وجدت أخيراً أسقفاً (معقولا) أحتمى به ، وأننى ضمنت حياتى لعدة أيام قادمة ، وأن أستراليا ما تزال تبدو لى لغزاً هائلا مجهولا ، وأنى على موعد فى الرابعة بعد الظهر مع (مستر آدمز) كان يتوقف عليه – فيما يبدو – مستقبلى فى أستراليا .

حرصت على أن أخرج فى الثانية لأضمن الوصول فى الرابعة ، ولكنى لم أصل إلا فى الرابعة وعشر دقائق . المهم أننى وصلت مطمئنًّا إلى أن « مستر آدمز » سوف يغفر هذا التأخير البسيط من شخص لم تمض عليه

أكثر من ساعات فى قارة الأحلام .

نقرت الباب بلطف ثم دخلت وعلى وجهى ابتسامة عريضة وقلت :

— مساء الخير يا مستر آدمز .

ووجدت مستر آدمز الموعود شابًّا صغيراً مصفف الشعر بطريقة الخنافس ، ووجدت أمامه رجلا بدا من اضطرابه « وبهدلة » ثيابه أنه مهاجر جديد . وضاقت الابتسامة فى وجهى عندما نظر إلى مستر آدمز ببرود شديد وأخبرنى أن موعدى كان فى الرابعة لا الرابعة وعشر دقائق . ثم انصرف عنى تماماً إلى زائره المضطرب .

وأغلقت الباب على مستر آدمز وزائره وأملى فى وظيفة فى أستراليا . ولم أدر ماذا أفعل ، فعدت إلى الشاب الذى حدد لى من قبل موعداً مع مستر آدمز والذى كان يبدو أقرب إلى البشر فقصصت عليه قصتى مع مستر آدمز ولعلنى أقنعته ببراءتى أو لعله أراد أن يتخلص منى ، فإنه حدد لى موعداً جديداً مع المستر آدمز الذى بدأت أشعر أنه المفتاح الوحيد لدخول أستراليا .

جاء الموعد الجديد فى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ، وحرصت هذه المرة على أن أبدأ جولتى فى الثامنة ثم نجحت فى الوصول فى الميعاد .

وكانت نتيجة المواظبة غريبة للغاية . استقبلنى مستر آدمز ببشاشة ولطف ، ولم يشر إلى (جريمة) تأخرى بالأمس ، وقرأت فى وجهه أنه صفح عنها صفحاً جميلا ، ثم قرأ مستنداتى وسألنى عن خبراتى وطبيعة ما يمكن أن أقوم به من أعمال ، وأصدر بفمه مصمصات تدل — ربما — على التقدير . وأخبرنى أننى اخترت وقتاً سيئاً (شهر يناير) لدخول أستراليا ،

لأن إجازات عيد الميلاد تمتد من ديسمبر حتى تكاد تغطى يناير . كنت قد بدأت أشعر بأنني اخترت « قارة » سيئة للهجرة ، وعلى أى حال فقد بدأ مستر آدمز العجيب يبحث لى عن وظيفة ، ففتح دفتر التليفون وبدأ يكلم الشركات والمصانع التى قد يكون بها عمل يناسبنى .

ومع كل مكالمة كان قلبي يخفق ثم يهبط مع كلمة « شكراً » التى ينهى بها مستر آدمز مكالمته .

ساعة كاملة وهو ينتقل بالتليفون بين الشركات المختلفة حتى أصابنى « أنا » الملل والفتور وودت أن أعود إلى حجرتى ، التى لا يعلم إلا الله كيف أصل إليها ، ثم أشعلت سيجارة وأشعل مستر آدمز سيجارة وقال لى معتذراً إنه لا يجد عملا يناسبنى ، فهل أقبل عملا لا يناسبنى مؤقتاً ؟ وافقت حتى تنتهى هذه الجلسة المملة ، وعند ذلك أمسك بالتليفون من جديد لأمد لم يطل . من المكالمة الأولى وجد الوظيفة غير المناسبة : وظيفة « أمين مخزن » ، وفى الحال وردت إلى خيالى صورة أمناء المخازن فى مصر . . المكتب الكبير والسعاة الكثيرون والشاى الذى لا ينتهى والرجاءات والمجاملات . .

وفى نفس الوقت كان مستر آدمز قد كتب لى خطاب التوصية المطلوب ووضعه فى ظرف أنيق وسلمه لى لأقدم نفسى « فوراً » إلى مخازن « كولز » .

وضعت المظروف فى جيبى وخرجت ممتنًّا متعباً مصمماً على أن أصل فى نفس اليوم إلى « مخازن كولز » ، فقد أكد لى مستر آدمز أنهم فى انتظارى .

وركبت القطار وغادرته بعد ثلاث محطات كما أوصانى مستر آدمز ولكنى وجدت نفسى فى المتاهة التى كنت أجد نفسى فيها منذ أن

وصلت إلى القارة السعيدة . . شوارع لا متناهية الطول والعرض وعربات تمر بسرعة الريح تعبر الشوارع صعوداً وهبوطاً فى سرعة جنونية ، ثم لا أحد يسير ليسأله الإنسان عن شيء .

وحمدت الله على أننى لا أحضر هنا بناء على موعد محدد بل « يوم » محدد . لذلك أستطيع أن « أتوه » حتى نهاية اليوم كما أشاء .

ووصلت فى النهاية إلى أرض فضاء شاسعة فى وسطها بناء ضخم مكتوب عليه « مخازن ج . ج . كولز » .

ودخلت من الباب الذى لا يقوم على حراسته أحد ، فوجدت نفسى فى صالة صغيرة بها أثاث قليل ونافذة تجلس خلفها فتاة ، فتقدمت نحوها وطلبت مقابلة مستر ويزرز ، فأمرتنى بالانتظار ثم طلبته بالتليفون فحضر ليقابلنى فى نفس الصالة الصغيرة .

وعجبت أن شخصاً مثل مستر ويزرز يكون موظفاً فى حين أن كل ما يناسبه هو ملجأ للعجائز أو متحف للعجائب ، فهو مخلوق ضئيل محدودب الظهر ذو ساق خشبية ويد خشبية .

لم أجد فيه شيئاً يمكن أن يوصف بالحياة إلا عينيه النافذتين اللتين ترسلان من وراء نظارته السميكة أشعة حادة أكاد أقسم أن بها تياراً من الكهرباء .

ثم تكلم مستر ويزرز ، وبذلك أضاف عجيبة جديدة إلى عجائبه السابقة فعندما انفرجت شفتاه تحركت كل أجزاء وجهه بسرعة وإخلاص كأنها أجزاء لعبة متصلة ، ولكن استحال على أن أعرف أكان مبتسماً أم مكشراً عن أنيابه . .

ونهضت واقفاً بمجرد ظهوره ، ومددت له يدى بالسلام فسلم فى دهشة عرفت فيا بعد مصدرها ، وهو أن السلام باليد شيء غير معروف — أو مطلوب — فى أستراليا .

سلمته خطاب التوصية ففتحه وبدأ يقرؤه وهو يتلمظ كأنه يمضغ بأسنانه قطعة من الكاوتشوك ، ثم قادنى إلى ما يسميه حجرة مكتبه ، وهو فى الحقيقة شق صغير فى الحائط به ترابيزة صغيرة كأنها ترابيزة طفل صغير وبجوارها كرسى . وأشار إلى بالجلوس فحشرت نفسى فى الكرسى وجلست وأنا أخفى عجبى وأحرص على أن يرى منى أحسن ما عندى .

سألنى عشرات الأسئلة وأجبته عنها ، وفى النهاية قال إننى نجحت فى الامتحان « ولعل هذا أعجب امتحان مررت به » ثم كتب لى فى ورقة صغيرة قيمة مرتبى الأسبوعى وضرائبى الأسبوعية ومواعيد الحضور وطلب منى أن أحضر فى اليوم التالى لتسلم عملى .

كانت مواعيد الحضور هى الثامنة إلا ثلاث دقائق ولكنى كنت أمام المخازن فى السابعة والنصف ولم أجد أحداً أو شيئاً فى هذه الصحراء الخضراء فى ذلك الوقت ، فرابطت أمام الباب حتى حضرت عربة صغيرة خرج منها صديق الأمس مستر ويزرز . تقدمت إليه أحييه ولكنه نظر إلىّ كأنه لا يعرفنى ثم قال باقتضاب : فيا بعد . وسرعان ما اختفى داخل المبنى .

وقفت حائراً لا أدرى ماذا أصنع ولكن بدأ الناس يتواردون ويدخلون ويوقعون فى الساعة ففعلت مثلهم ، ووقفت فى الصالة لا أدرى أين طريق مكتبى ، وعند ذلك نادانى مستر ويزرز وقدمنى إلى شخص اسمه « جيرى » وأخذنى « جيرى » ، من حجرة إلى حجرة وهو يكلمنى بسرعة فى واجبات

عملى فلم أفهم شيئاً مما قاله ، ولكنه أوصلنى إلى « بيل » الذى قطع بى شوطاً آخر ، ثم أوصلنى إلى « إيدى » الذى عرفت منه مكان المطعم والدولاب المخصص لثيابى ثم تسلمنى منه « جونى » فسار بى من مخزن إلى مخزن حتى وصلت إلى المكان الذى خصص لعملى ، وعند ذلك نادى شاباً كان يعمل فى نفس المكان لكى يمرننى على العمل الجديد .

وأفقت لنفسى بعد هذا المشوار فوجدتنى فى فناء واسع به عشرات الأشخاص الذين يعملون كالنحل فى تعبئة بضائع فى صناديق من الكرتون ثم يضعونها على عربات يد صغيرة يقودها أشخاص آخرون حتى تخرج من البوابة .

وهو مخزن بضائع حقاً ولكن لا مكتب ولا سعاة ولا شاى . . أنا المكتب وأنا السعاة وأنا الشاى والكل حولى يعمل فى سرعة ونشاط كالقردة ثم تنبهت إلى معلمى الجديد ووجدته شاباً باسم الوجه قدم لى نفسه باسم « جيدو » وقال إنه يونانى ، ثم هون على العمل وقال إننى سرعان ما أتعود العمل وأعرفه .

وجاء جيدو حقاً الواحة الوارفة الظلال وسط الصحراء الجليدية التى شملتنى منذ الصباح . ولم يشغل جيدو نفسه كثيراً بالتفكير فى أمرى ومحاولة معرفة « قصتى » فإنه سرعان ما وضعنى فى إطار المهاجر النموذجى . . الرجل الفقير الذى تضيق به بلده فتلفظه إلى بلاد أخرى تملك المال والعيش وتهيئ الحياة — الكريمة أو غير الكريمة — لكل من يدخلها .

هكذا عرفت من جيدو أننى حسن الحظ لحصولى على هذا العمل فهو عمل جيد يحسدنى عليه الكثيرون ، بل إنه سألنى عن « الواسطة »

الذى ألحقنى بهذا العمل .

أما لماذا وصف هذا العمل بأنه عمل جيد فلأنه نظيف فى مقابل أعمال كثيرة كنت سأضطر فيها إلى أن أغوص فى الأوحال وأتسلق الجبال وأغطس فى المناجم وأطفو فى الحقول .

هو عمل جيد إذن . وإذا نجحت فى الحصول على عطف رئيسى المباشر فإنه يسمح لى بعمل إضافى أتقاضى الأجر فيه مزدوجاً ، وكيف أحصل على هذا العطف ؟ أن أحرص على ألا أتكلم فى أثناء العمل وألا أضحك وألا أدخن وألا أجلس وألا أقف وأن أبدو طول الوقت عبداً نشيطاً سعيداً .

ثم أسر إلىّ جيدو بأنه من القلائل الذين يحضرون للعمل فى أيام الإجازة الأسبوعية فيحصل بذلك على أجر يومين فى مقابل عمل يوم واحد .

وما الذى يقوم به فى هذا اليوم ؟ إنه يكنس ويمسح المخزن كله . . وكان يجب أن أستعين بقدر كبير من الهدوء لكى أتصور أنه جاد فى كلامه ، وبقدر أكبر من الهدوء لكى يبدو علىّ الإعجاب والتقدير . فمن المؤكد أننى لم أترك بلدى لكى أكنس وأمسح مخازن أستراليا .

ثم اتبعت نصيحة — نفسى — التى خلقتها الظروف المتلاحقة وهى ألا أدهش لشىء أو على الأقل لا أبدى هذه الدهشة ، فهذا مجتمع جديد علىّ . إما أن أقبله أو ألفظه كما هو . .

وركزت انتباهى على جيدو لأرى كيف يقوم بعمله فوجدته يعمل بمهارة ودربة وسرعة وبساطة ، وشاركته شيئاً فشيئاً فى تعبئة هذه البضائع التى بدا ألا نهاية لها ، وكأنما هذه المخازن تصدر بضائعها للعالم كله . . وكنا نضع البضائع الكثيرة فى صناديق من الكرتون ثم نربط هذه الصناديق بالحبال

ونحملها إلى حيث تنقلها عربة اليد . وسال عرقى ونال منى الجهد والتعب فلم أتعود من قبل هذا المجهود اليدوى الجسمانى الشاق ، ولكنى وضعت ثقتى فى قدرة الإنسان الطبيعية على التكيف والتعود .

وبعد ساعتين من بداية العمل فوجئت بصوت صفارة يدوّى فجأة ، ورأيت الجميع يتركون ما بأيديهم ويجرون فى اتجاه واحد . هل هو إضراب ؟ ورقص قلبى فى صدرى ، ولكن جيدو جذبنى من يدى وهو يصيح : الشاى . الشاى . .

وصلنا إلى حيث يقف الجميع فى طابور طويل أمام عربة صغيرة عليها براميل ذات صنابير بعضها للشاى وبعضها للبن ، أما السكر فكان موضوعاً فى إناء كبير فوق العربة .

وملأت فنجانى وجلست بجوار جيدو ونظرت حولى فإذا الجميع يقرءون جرائد الصباح بسرعة واهتمام كأنهم فى عمل جاد فى حين انتحى بعضهم جانباً وأخذ يلعب الورق ، وعرفت من جيدو أنهم يكملون أدواراً بدأت بالأمس وقد لا تنتهى اليوم ، فهم يلعبون فى كل فترة شاى .

لا وقت للكلام ولا للتراخى وحتى اللعب يؤدونه فى جد . . هل أستطيع يوماً أن أهضم هذه الحياة الصارمة وأفرزها أحوالا وتصرفات ؟

وانتهى وقت الشاى الخاطف وعدنا إلى تعبئة البضائع اللعينة ، وبعد ساعتين انطلق الصوت المزعج من جديد إيذاناً بوقت الغداء ، وجريت مع زملائى ، ولكنى لم أصعد إلى المطعم بل خرجت إلى الهواء الطلق واشتريت غدائى من محل قريب ثم جلست أتناوله فى الفضاء المحيط بالمصنع .

وتمددت على الأرض أريح عضلاتى المكدودة فلم أعد أرى إلا السماء

الرمادية تحيط بى ، وطار طائر أبيض ثم هبط على الأرض وهو يطلق صيحات ذكرتنى بالغراب ، ثم سار يحجل فوق العشب ، إنه غراب حقًّا ! ! ولكنه غراب أبيض . .

طالما قال العرب القدماء : عندما يشيب الغراب . وها هو ذا الغراب قد شاب فماذا بعد ؟

وشعرت بأننى أبتعد عن العشب الأخضر والسماء الرمادية والغراب الأبيض والمخزن الرهيب وأصل إلى حيث يعيش الناس حقًّا ويضحكون بأصوات عالية ويجعلون من كل شيء مشكلة تستحق الاهتمام ، وسمعت ضجة الناس والحياة والراديو وعشت زحام الشوارع والعربات ورأيت الشمس الذهبية الدافئة تسكن السماء ولا تفارقها .

ثم ردنى إلى الواقع صوت الصفارة يدعونا إلى العذاب من جديد ، فنهضت ونفضت العشب من ثيابى وسرت وسط القطيع . إلى الداخل .



❁ دائرة الطباشير الأسترالية ❁

فجأة دب الخلاف بيني وبين جيدو اليوناني ، صديقي ومعلمي في مخازن (ج . ج . كولز) ، وجاء الخلاف من جانب واحد . جانبه هو . والسبب فيه (اللغة) . .

وأقول (فجأة) برغم أن الخلاف جاء بعد ستة أسابيع من العمل في المخازن . إلا أن هذه الأسابيع كانت قد انقضت في محاولة (تربية) الصداقة بيننا ، فلما جاء الخلاف نتيجة لهذه المحاولات أو بعد المحاولات كان إذن فجائيًّا .

ولكن كان قد سبقه خلاف آخر عميق بيني وبين المخازن كلها ومن فيها . ربما من اليوم الأول . ولم يحدث بعد ذلك في كل يوم إلا ما يزيد هذا الخلاف أو يعمقه .

لم أستطع إطلاقاً مثلاً أن (أبلع) نظرة هؤلاء الناس إلى الحياة . هذه النظرة التي تكاد تكون شيئاً غريزيًّا أكثر منه عقليًّا لقلة اهتمامهم بالتفكير واندماجهم بالأكثر في ساقية ظروف حياتهم التي تدور بهم أو يدورون بها ولا يتوقفون أبداً .

لم أفهم كيف يمكن أن يقضي الإنسان أعواماً من عمره لا يفعل شيئاً

إلا تعبئة بضائع لا أول لها ولا آخر وهو تحت تأثير كرباج غير منظور . هذا الكرباج هو الرؤساء الذين ينتشرون فى المخازن كالنحل فإذا لاحظوا (نأمة) لا تعجبهم فى عمل واحد من العمال فإن نتيجة ذلك هى الفصل الفورى المصحوب بالابتسامة الرقيقة والتمنيات الطيبة . ما أسهل الفصل وما أسهل أى شىء فى هذه المصانع ، وليس بين العامل وصاحب العمل إلا (يفتح الله) . وأذهلنى أن أجد عمالا أمضوا عشرات السنين فى هذا المخزن حتى استحقوا فى النهاية نيشاناً مضحكاً يحمل اسم (ج . ج كولز) على صدورهم. لم تزد مرتباتهم ولم تخف واجباتهم . كل الذى حصلوا عليه مقابل استمرارهم فى العمل هو استمرارهم فى العمل . فلا علاوة ولا ترقية ولا جلوس على مكتب ولا تخفيض فى ساعات العمل . ولا شىء . .

وبعد أيام أخبرنى رئيسى بأن هناك (مصريًّا) آخر فى المخازن اسمه (ريكو) وأنه فى المخازن منذ سنوات . ثم عرفنى به فوجدته مصريًّا (فرانكو آراب) فهو يتكلم العامية المصرية ، وهو قد ولد فى مصر وعاش فيها ، وهو من جنسية لا يعلمها إلا الله ، ثم خرج من مصر مع من خرجوا عندما بدأت مصر تنفض عن ظهرها الطفيليات والطحالب .

وقد تبادلنا النفور على الفور فلم أر فيه إلا مسخاً مشوهاً ، لا هو مصرى ولا هو أجنبى ، ولم ير فىّ إلا مصريًّا فلاحاً ثقيل الظل . هكذا انفصلنا بمجرد أن تقابلنا ، ثم لاحظت بعد ذلك – على البعد – أنه يتشبه بالأستراليين فى كل شىء ، فيتحدث مثلهم ، ويتصرف مثلهم ، ووجدته يتمتع حقًّا بمكانة ممتازة بينهم . رأيت فيه صورة دقيقة للعبد الشبعان النشيط السعيد .

ولقد تصورت أنه قد يجيء يوم على عمال المخازن يتحولون فيه إلى مخلوقات أخرى غير إنسانية ، وسوف ينسون اللغة – أيًّا كانت اللغة التى يتخاطبون بها – فإن لغتهم التى سمعتها كانت مزيجاً من العواء والنباح والشوشرة غير المفهومة التى لا تعنى شيئاً والتى ربما كانوا لا يقصدون بها شيئاً . أو على الأقل شيئاً معقولا .

وكنت كلما رأيت سعادتهم بعبوديتهم ازدادت نفسى بعداً عنهم . واحتججت فى صمت على هذا العمل وهذا النظام وهؤلاء الناس .

ثم اكتشفت بعد ذلك أنهم ليسوا سعداء جدًّا كما يبدو عليهم . ضبطتهم يدخنون فى دورة المياه مرة بعد مرة وواحداً بعد الآخر حتى اضطررت أن أراجع نفسى فيما أصدرته عليهم من أحكام . إن هذه الأعمال (الصغيرة) هى احتجاج على القبضة الحديدية الباردة التى تغل أعناقنا جميعاً .

وهل أستطيع أن أفعل مثلهم ؟ وجربت . ولكنى ما كدت أشعل سيجارة حتى فتح الباب ودخل رئيسى كأنه كان فى أعقابى ، وهاج وثار ثم سار وأنا خلفه أتخبط فى سخطى وخجلى . كيف عرف ذلك المجنون أننى دخلت لأدخن ؟ ولماذا لا يضبط الباقين ؟ . . وعدت إلى مكان عملى فوجدت الابتسام الخبيث يعلو وجوه جيرانى . هل هى مؤامرة ؟ وإذا كانت مؤامرة فكيف عرفوا أننى ذهبت لأدخن ؟

زميل واحد هو الذى أشفق على موقفى وأخبرنى أن أذهب إلى (دائرة الطباشير) كلما شئت التدخين . أين دائرة الطباشير هذه ؟ فأشار إليها . إنها على بعد أمتار من مكان عملى ، وطالما رأيت العمال يقفون فيها

ويدخنون دون أن أفهم سرًّا لحرية تدخينهم . ولكن جاك – زميلى الجديد – أوضح لى أن هذه الدائرة الطباشيرية هى المكان المخصص للتدخين ، ومن حق كل عامل أن يذهب إليها مرتين فى اليوم . كل مرة لمدة دقيقة . وبالرغم من أن التدخين فى دائرة الطباشير (حلال) إلا أنه ليس من المستحسن التواجد فيها كثيراً حتى لا يأخذ الرؤساء فكرة سيئة عن العامل . لهذا إذن يلجأ العمال إلى دورة المياه للتدخين .

وبدأت أستعمل حقى القانونى ودخلت دائرة الطباشير وأخرجت علبة السجائر وأشعلت سيجارة . ودائرة الطباشير هى دائرة صغيرة فى وسط المخزن الكبير لا تكاد تتسع لوقوف ثلاثة أشخاص متلاصقين . ولكن ما أجمل الإحساس بالحرية والشرعية وأنا أقف فيها أدخن . . إننى أنظر حولى بأمان الطفل فى حضن أمه وأخرج لسانى (فى سرى) لكل شىء حولى . . أنا فى دائرة الطباشير حر . . أدخن وأنظر حولى دون أن أخشى الفصل . أقف معوجًّا كما أشاء . أطرقع أصابعى كما أشاء ، بل إننى أستطيع أيضاً أن أجلس القرفصاء ، فما أجمل هذا ! . .

وتعلمت فى المخازن أن أبرع ما يفعله العامل هو (سرقة) الوقت ، دقيقة فى دائرة الطباشير فى الصباح ودقيقة أخرى فى المساء . ثم دقيقة فى دورة المياه بين هذا وذاك . ودقيقة أخرى لتنظيف قطعة الإسفنج التى تستعمل فى بل الشرائط اللاصقة . أربع دقائق كاملة وربما خمس . . كانت هذه هى السعادة الوحيدة وسط ذلك النظام الصارم المجنون .

ولكن الجديد لا يظل جديداً إلى الأبد . سرعان ما تعودت هذه السعادة حتى صارت مع الوقت شيئاً عاديًّا لا يثير فى نفسى ما كان يثيره

فيها من دواعي السرور . وتطلعت نفسي إلى ترويح جديد . الكلام . أريد أن أتكلم وأن أسمع غيري يتكلم . أي كلام . ولكن مع من أتكلم ؟ . إن (جيدو) لا يعرف من الإنجليزية إلا كلمات قليلة لا تتجاوز التحية وخذ وهات . وهو في ذلك لا يختلف عن معظم المهاجرين اليونانيين الذين يتصفون بغباء ذهني غريب ، فهم قد يقضون أعواماً في بلد المهجر دون أن يتعلموا لغته . ربما كان غباؤهم هو السبب . وربما كان أيضاً تكتلهم وتلاصقهم مع أبناء جلدتهم في أي بلد يحلون فيه . ولما كانت معظم الأعمال (صامتة) وكانوا يقضون وقت الفراغ الضئيل مع يونانيين مثلهم فأين يمكن أن يتعلموا لغة أخرى غير اليونانية ؟

هكذا لم تجد محاولاتي مع جيدو شيئاً . ولكني لم أيأس ، كان جيدو هو جاري الوحيد ، ولكن (جاك) كان جاراً (منتسباً) فهو مكلف بوضع صناديق البضائع التي نملؤها على قضيب متحرك يسير بها إلى داخل المخزن فهو يقترب مني مرة كل ربع ساعة للحظة خاطفة ثم يتابع سير البضائع على القضيب .

في هذه اللحظات الخاطفة تمكنت من إنشاء علاقة طويلة المدى مع جاك في كل مرة كان يقترب مني فيها وذلك بأن أقول أول ما يخطر ببالي ، وقد يرد أولا يتمكن من الرد فيرد عند عودته . وعرفت أنه يكره العمل في المخازن لأنه ليس عاملا عاديًّا . . . إنه صاحب مهنة . ما هي هذه المهنة ؟ طباخ . وضحكت عندما لم أجد فارقاً كبيراً بين العامل والطباخ ، ولكنه قال جادًّا جدًّا : إن مهنة الطباخ تكسب دولارات أكثر . . هذه هي القيمة الوحيدة في هذه القارة السعيدة . وهي أيضاً العلاقة الإنسانية

الوحيدة فيها . هات وخذ . فلا غرابة إطلاقاً فى أن يستقيل عامل من عمله لأنه وجد عملا آخر يمنحه دولاراً واحداً زيادة . . العمل غير ثابت والعامل غير ثابت والوجوه تتغير كل يوم وكأن المجتمع كله سوق كبيرة تنهض وتنفض كل يوم . ثم ماذا يفعلون بهذه الدولارات الكثيرة ؟ . .

إنهم يشربونها . أو يشربون بها البيرة . . والبيرة هى الشراب القومى ، أو الشراب المقدس عندهم . وعندما ينتهى العمل اليومى (والأعمال كلها تنتهى فى الخامسة مساء) يهرع الجميع إلى البارات ويشربون البيرة (واقفين) حتى العاشرة مساء (وهو موعد إغلاق البارات) وهذا الموعد (المتأخر) رفاهية جديدة منحتها الحكومة للشعب منذ سنوات قليلة ، وقبل ذلك كانت البارات تغلق أبوابها فى السادسة مساء ، وعلى سكان القارة كلهم أن يشربوا ما يريدون فى ساعة واحدة .

فكان الجميع يحرصون على الوصول فى وقت واحد وكانت النتيجة دائماً هى مصرع بعض الأشخاص تحت الأقدام . ونظراً لقلة عدد السكان بالنسبة لمساحة القارة فإن الحكومة رأت أن (تبحبح) موعد الشرب حرصاً على (عدد) السكان .

هذا العدد الذى لا يكاد يتغير برغم فتح جميع الأبواب للهجرة ، ولكن ما يحدث هو أن معظم من يهاجر إلى أستراليا لا يبقى فيها بالقدر الذى يسمح له بتكوين ثروة صغيرة أو كبيرة ثم يعود إلى بلده الأصلى فلا يبقى فى أستراليا إلا من لا بلد له ليعود إليه .

وحتى الآن لم تنجح أستراليا فى أن تجعل (المهاجر) يحب البلد والمجتمع لدرجة تجعله يسمى نفسه أستراليا .

وزميلى (جاك) أسترالى من أصل إنجليزى ولذلك لم يفهم أبداً سر عودة المهاجرين من أستراليا إلى بلادهم . وهو يشرب البيرة كل يوم وكل وقت إذا أمكن ولكنه سكير (عاقل) فهو يشرب بنفس إفراط أبناء جلدته ثم يدخر جزءاً من مرتبه كل أسبوع ، وهو يحضر إلى العمل فى ملابس يخجل أى شحاذ فى القاهرة أن يظهر بها ، أما هدف ادخاره فهو القيام برحلة حول العالم . وقد وجدت فى رحلته المرتقبة هذه فرصتى (للكلام) فشرعت أحدثه عن بلادى وتاريخها وشمسها ومطارح الجمال التى لا تنتهى فيها ، فوجدت بذلك الموضوع الذى أملأ به اللحظات الخاطفة التى كنا نتجاور فيها .

ولم أتصور أبداً أن هذه الصداقة الجديدة كانت على حساب صداقة قديمة حتى نظرت يوماً إلى وجه (جيدو) فقرأت فيه أشياء غريبة جداً . . إنه غاضب إلى أقصى حد لأنه يتصور أن كل حديثى مع جاك إنما هو سخرية منه . وهالنى ذلك التصور الخاطئ ، وحاولت أن أشرح له الحقيقة ولكن كيف ؟ إنه لا يفهم الإنجليزية وأنا لا أفهم اليونانية ، وكلما حاولت الكلام ازداد إمعاناً فى النفور والتباعد حتى انقلب عدواً حقيقياً على غير حق .

هكذا جاء الخلاف بينى وبين (جيدو) لغوياً .

وأحزننى أن أبدو فى صورة الجاحد للجميل ، ولكن (جيدو) كان قد اقتنع بما لا يدع لديه مجالا للشك بأننى أسخر منه ، وانطوى على الحقد والغل ، وتحولت محاولاتى الحسنة النية للتفاهم إلى ما يشبه الاستجداء ، فتراجعت .

الأمر لله . هذه عداوة حمقاء مفروضة عليّ . ولكن عدم قبولها أسوأ من قبولها ، فلأقبلها إذن .

وتصورت أن الأمر سوف ينتهي عند ذلك (القرار) ، وأن جيدو سوف يسقطني من حسابه كما أسقطته من حسابي ، ولكن شد ما كنت مخطئاً . . .

لقد كان إعلان العداء بداية لسلسلة من المضايقات الصغيرة المتلاحقة ، وتحول جيدو إلى واحدة من (نساء حوش بردق) ولعله لو ساعدته اللغة لفرش لى الملاية حقًّا ، ولكن اللغة أعجزته فوقف عند حد التلميح والغمز واللمز .

ماذا أفعل مع هذا العدو ؟

حاولت أن أفكر بطريقة عمال المخازن فلم أجد إلا الضرب والعدوان تعبيراً عن (شعورى) نحوه ، ولكن شدة توتر العدو جعلته يقرأ فى وجهى ما يعتمل فى نفسى فإذا به يذكرنى بأننى المصرى الوحيد فى هذه المخازن أمام ٥٠٠ يونانى .

آه . . هذا طريق مسدود إذن .

ولكن إذا كان يعتمد على هذا العدد الهائل من (الحلفاء) فلماذا لم يبدأ هو بالضرب ؟ ولكنه كان يدخر لى انتقاماً (يونانيًّا) بعيد المدى .

أخبرنى جاك أن جيدو ينوى أن يضع فى دولاب ثيابى بعضاً من البضائع التى نعبئها على أن يتهمنى بسرقتها فيما بعد . هذا هو انتقامه إذن . . انتقام قاس رخيص لا رجولة فيه ولا شرف . ولكنه انتقام كفيل بأن يسود عيشتى فى أستراليا كلها . فهؤلاء المجانين لا يغضبهم شىء قدر السرقة التى

يعقبها الفصل غير المشرف والتي يكاد يستحيل بعدها الحصول على وظيفة أخرى .

أثبت جيدو بهذه النية أنه عدو خطير حقاً . . وكيف أتقى شره ؟ وضعت كل انتباهى عليه ونسيت (الكلام) والدقائق التى كنت أختلسها من الوقت ودائرة الطباشير ولازمته كالظل ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم حتى كدت أفقد عقلى .

ثم استيقظت ذات صباح وقد اهتديت إلى فكرة هائلة رأيت فيها الحل الموفق السعيد الذى يجعلنى أرد كيد (جيدو) إلى نحره . قلت لنفسى إذا كان انتقام جيدو مبنيًّا على الوشاية (الكاذبة) بى عند الرؤساء فلم لا أسبقه وأشى به أنا ؟ لن يطاوعنى ضميرى على وصمه بالسرقة . . ولكنى سوف أبلغ (الرؤساء) بما ينوى هو أن يفعله ضدى ، وبذلك أكون قد وضعت أولى الأمر فى قلب المشكلة ولن يستطيع (جيدو) بعد ذلك أن يفعل شيئاً .

وارتحت لهذه الفكرة بعد أن قلبتها على مختلف الوجوه ، ولم أجد فيها عيباً واحداً . هكذا لم أكد ألمح (الرئيس) بالقرب منى حتى تقدمت منه وحكيت له فى بلاغة ووضوح كل ما حدث بينى وبين (جيدو) ثم توجت قصتى بأن أشهدت ذلك الرئيس على ما قد يفعله (جيدو) .

فماذا كان رد (الريس) ؟ بدون أدنى اهتمام بقصتى المؤثرة رد علىّ بأن الشركة تمنحنى راتباً فى مقابل ثمانى ساعات من العمل المتواصل ، فليس من حقى أن أضيع الوقت (الذى لا أملكه) فى علاقات شخصية مكانها الحقيقى هو الشارع . .

كان ردًّا بارداً قاسياً لم أتوقعه ، وقد ذهلت لحظة ، ولكنى قلت لنفسى إن ذلك (الريس) قد عرف بما ينويه جيدو وإننى أستطيع أن أستشهد به إذا وقعت الواقعة .

عدت إلى مكانى (نصف) منتصر ، ونظرت إلى جيدو لأضع فى ذهنه حقيقة ما قلته ، ولكنه لم يفهم ، فسألنى ماذا كنت أقول للريس فأجبته بهدوء وبطء لأجعل الكلام يتسرب إلى ذهنه . واستمع إلىّ جيدو فى هدوء وبلادة وفى النهاية هز رأسه وانصرف عنى إلى صناديق البضائع .

وعجبت لعدم تأثره أو اضطرابه ، ولكنى أقبلت على العمل فى نشاط وأنا أؤكد لنفسى أننى انتصرت ودفعت عن نفسى شبح التهمة المخيفة المستقبلة . فما أكاد أطمئن حتى أتذكر هزة رأس جيـــدو الأخيرة فيتبدد اطمئنانى . ترى هل يستطيع جيـــدو أن يفعل شيئاً آخر ؟ هل يستطيع حتى أن يدافع عن نفسه ؟ المفروض أننى اتهمته وأنه الجانى وأننى المجنى عليه ، فهل أرى قريباً ما يشفى غليلى فيه ؟ أو على الأقل هل أضمن أنه سينصرف عن نيته البشعة ؟ ولكن هل كنت أكره جيـــدو حقًّا ؟ أبداً لم أنس إطلاقاً بشاشته معى فى الأيام الأولى ومحاولاته الكريمة لتبسيط الأمور أمامى . إنه وأنا ضحايا (اللغة) وأنا أفهم موقفه تماماً وأتعاطف معه ، ولكن كان لابد أن أدافع عن نفسى . وقد دافعت وبقى أن أجنى ثمار انتصارى .

ولم يطل انتظارى لهذه الثمار . فى الصباح التالى جنيتها . ما كاد اليوم يبدأ حتى جاء (الريس) الذى شكوت له جيدو . جاء مسرعاً كعادته ثم اختارنى ومعى ثلاثة آخرون وكلفنا بأن نتسلم العمل فى مخزن الخشب .

لم أعرف أترقية كان هذا النقل أم عقوبة ، ولكن ما قرأته فى أعين جيرانى من الاستنكار والهلع جعلنى أعرف أننى إنما أجنى ثمار انتصار جيـــدو لا انتصارى ، وأن هذا النقل عقوبة .

سرنا وراء (الريس) حتى وصلنا إلى أقصى المخازن ، ودخلنا حجرة صغيرة من الخشب ذات سقف واطئ لا يستطيع الإنسان أن يسير تحته إلا منحنياً . وفى الحجرة وجدنا صناديق كبيرة من الخشب وجرارات من الحديد وأشياء لا يمكن أن توجد إلا فى سجون المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة .

ما هو عملنا هنا ؟ أن ننتزع المسامير من صناديق الخشب وأن نفتح الصناديق الكبيرة ونعبئ فيها الصناديق الكارتونية ثم نغلق الصناديق الخشبية ونسمرها ونحملها فى الجرار الحديدى عبر طريق مرتفع يخرج بها إلى الشارع وهكذا طول اليوم . ولقد كنت أشكو قديماً من عملى ومن (جوار) جيدو ، ولكن هذه الزنزانة الجديدة كانت شيئاً أبعد من كل خيالى . .

كان الجو حاراً جداً حيث كانت القارة تتعرض لموجة حارة ، وكانت الزنزانة الخشبية حارة فى حد ذاتها ، ولكن الجو الحار أحالها إلى فرن ملتهب ، فخلعت ثيابى حتى أصبحت نصف عار ، وبدأت أجتهد فى العمل الجديد الغريب . ولم تمض ساعة حتى أيقنت أن الأمر كله مهزلة وأنني لن أستطيع البقاء فى هذه الزنزانة ساعة أخرى ، فقد تكسرت أصابعى تحت دقات الشاكوش الخاطئة ، وتمزقت ثيابى ، وجرحت رجلاى لسقوط صناديق الخشب فوقها أكثر من مرة ، وأسال الحر والتعب عرق على جسمى حتى صرت كقطعة من الإسفنج المغموس فى ماء يغلى .

وما كادت الصفارة تعلن موعد الغداء حتى هرعت إلى الخارج بدون

ثياب هرباً من ذلك الأتون ، وجلست فى الهواء معرضاً جسمى كله للهواء ، وبعد الغداء عدت إلى الزنزانة وقد جف عرقى نوعاً وبدأت العمل البغيض ، وانحنيت فوق صندوق خشبي وفى يدى الشاكوش لأنتزع المسامير منه ، وانتزعت أول مسمار وأردت أن أعتدل فى وقفتى وإذا بلسان من النار يندلع فى ظهرى ، وصرخت من الألم ، وتصلبت فى وقفتى وأنا عاجز عن الاعتدال وعن الانحناء وعن الحركة فى أى اتجاه . لقد أصبت بانزلاق غضروفى ، وأحسست بآلام لا تطاق فى ظهرى وفى جسمى كله . واستنجدت بأقرب الواقفين معى فحضر ومعه آخرون وبعض الرؤساء واقتادونى إلى حجرة الطبيب (وهو طبيب وعامل فى نفس الوقت) واستخرج لى الطبيب صورة أشعة فى الحال قرر على أثرها أن ألازم الفراش لمدة أربعة أيام أبدأ بعدها العلاج (الذى حدده لى) على حساب الشركة ، فعدت إلى البيت ، وكانت أول إجازةطويلة أقضيها فى البيت منذ وصلت إلى أستراليا ، ولكنها لم تكن ما يمكن أن يوصف بأنه إجازة مثالية .



جريمة المحطة

كانت هذه الحادثة فاصلا بين عهدين من حياتى فى أستراليا .

كان قد مضى على وجودى فى ملبورن ستة أسابيع ، وفى هذه الأسابيع لم أفعل شيئاً سوى تعبئة البضائع والعمل بجهد فى المخازن والجرى من المخازن إلى الأتوبيس إلى البيت إلى الفراش ثم إلى الأتوبيس فإلى المخازن من جديد .

لم أجد دقيقة فراغ واحدة أفكر فيها فى شيء ، كل ما كان يهمنى هو أن أضمن بقائى فى المخازن . وبالتالى أضمن تسلم مرتبى كل خميس . هذا المرتب الذى دفعت منه ديونى وانتقلت به إلى منزل جديد ، أكثر هدوءاً وجمالا ونظافة ، وتمكنت من ادخار مبلغ معقول وضعته فى البنك . ولكنى لم أفكر فى المستقبل . كنت دائراً مع الدولاب راضياً به وبالضمان المادى الذى كان يزداد مع مرور الأيام .

وأما فى يومى الإجازة (السبت والأحد) فإننى كنت أعمل بنشاط يبتلع اليومين فى شراء مؤونة الأسبوع التالى وفى غسيل ثيابى وكى قمصانى وتجهيز الأكل للأيام الخمسة التالية .

ثم جاءت هذه الحادثة فمنحتنى إجازة (بأجر) . . إجازة أقضيها

فى البيت مطمئنًا إلى أن راتبى مستمر . وقد وضعت مرتبة السرير على الأرض كما أمرنى الدكتور وتمددت على المرتبة وقضيت الوقت متألماً عاجزاً عن الحركة حزيناً لما حدث ، مرعوباً من المستقبل مستعرضاً فى الوقت نفسه موقفى فى وضوح وجلاء . .

قلت لنفسى لم أعد بعد المهاجر الضال الخائف . لقد حصلت على عمل وعرفت شيئاً عن الناس والأعمال والحياة . لم أعد مجبراً على شىء ، أستطيع أن أستقيل وأبقى فى البيت شهراً كاملاً ، أنفق من مدخراتى دون خوف من شىء فلأضع هذه الحقيقة فى ذهنى طول الوقت فإنها تمنحنى الشجاعة والثقة ، ولأبدأ التفكير إذن .

بدأت التفكير ووصلت إلى أن أول ما يجب أن أفعله هو أن أترك هذه الوظيفة التى لا تناسبنى على الإطلاق . سوف أستمر فيها حتى يتم شفائى وسوف أستفيد من الإجازة الإجبارية فى البحث عن وظيفة مناسبة .

أما القرار الثانى الذى وصلت إليه فى تفكيرى . فهو أننى يجب أن أبدأ حياتى كفنان فى أستراليا . وحددت أحلامى فى تكوين فرقة مسرحية عربية تقدم مسرحيات عربية لجمهور الجاليات العربية . ولكن كيف أبدأ ؟ إذا كان تكوين فرقة مسرحية فى القاهرة شيئاً صعباً فإنه فى أستراليا يكاد يكون مستحيلا ، أو على الأقل مستحيل بالنسبة لمريض طريح الفراش لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد . لم أكن أعرف فى ذلك الوقت إلا الصديقين (فهمى حافظ) و (رشدى حنا) وهما لا يعرفان أى شىء عن المسرح .

ومع ذلك لابد من البدء ، ولا بد من الوصول إلى وظيفة مناسبة ومعها فرقة مسرحية عربية .

أما عن الوظيفة فإننى كنت أقرأ جميع الإعلانات التى تنشرها الجرائد (والجرائد تعلن يوميا عن آلاف الوظائف فى كل ما يخطر ومالا يخطر بالبال). وكنت أتصفح الإعلانات وأبحث عما يناسبنى. لم أشأ أن أتعرض هذه المرة لما تعرضت له فى المخازن.

وجدت عشرات الوظائف، وكتبت عشرات الطلبات، وجاءتنى عشرات الردود. لم يحدث أن أرسلت خطابا لم أتلق عليه رداً. وهذا فضل أخلاق أسجله لأصحاب الأعمال فى أستراليا دون أى تحفظ، فهم يحترمون أى خطاب يصل إليهم، ومن المستحيل ألا يردوا عليه بالرفض أو بالقبول.

ويشاركهم فى هذه الفضيلة مصلحة البريد. فالعمل فيها منتظم بشكل رائع، من المستحيل أن يتأخر خطاب أو يضيع. بل إنك تستطيع أن تتحكم فى موعد تسليم خطابك، فتضعه فى صندوق البريد الخاص (ببريد اليوم) أو الصندوق الخاص ببريد (الغد). وتستطيع أن ترسل ما تشاء فى الخطابات. ساعة أو مفاتيح أو مجوهرات، وأنت مطمئن أن شيئاً لن يضيع..

البريد فى أستراليا شيء مثالى. حلم رائع من أحلام المدنية الحديثة.

هكذا امتلأ مكتبى بالخطابات والردود. وكان الرفض هو القاسم المشترك فى معظم الردود التى تلقيتها. وكانت هناك مفاجآت طريفة فى بعض الوظائف التى تقدمت إليها مثل وظيفة (مدير المسرح) فى مستشفى صاحبة الجلالة التى اتضح أن عمل مدير المسرح فيها هو أن يقف مع الطبيب أثناء إجراء العمليات الجراحية لينقل القطن وقطع اللحم البشرية والضمادات

وما إلى ذلك .

ومثل وظيفة (مدير الأسماك) الذى اتضح أن عمله هو أن يقف بجوار الصيادين يفرز الأسماك حسب الأحجام .

ولكنى لم أيأس وتابعت القراءة والكتابة والأمل والانتظار . وأخيراً جاءنى خطاب يطلب منى مقابلة (مسز درو) فى الثانية و ٣٥ دقيقة من ظهر أحد الأيام ، كانت الوظيفة هذه المرة هى وظيفة (رسام إعلانات) . وفى اليوم المحدد حملت معى عينات من رسومى وذهبت إلى العنوان الذى حدده الخطاب .

ذهبت قبل الموعد بوقت طويل . فقد علمتنى أستراليا تقديس المواعيد ، وفى هذه الأيام كنت أسير بصعوبة بالغة وأترنح يساراً ويميناً بسبب الانزلاق الغضروفى . وكنت أخشى أن يؤثر مظهرى على أملى فى الوظيفة خصوصاً أننى قد عرفت أن أصحاب الأعمال يراعون الصحة والقوة بجانب المواهب والخبرات ، وربما قبل المواهب والخبرات . ولكنى كنت أعتمد على بذلتى السوداء الأنيقة وعلى قدرتى فى التمثيل والظهور بمظهر الشاب السعيد السليم حتى أخفى عجزى المؤقت .

سألت عن مكتب (مسز درو) ووصلت إليه . وفى الدقيقة المحددة كنت أطرق الباب وأفتحه بعد أن سمعت كلمة : تفضل . فتحت الباب ولكنى لم أدخل بل ابتسمت ابتسامة عريضة أشغل بها انتباه (مسز درو) عن حركاتى العاجزة . ثم فى قفزة واحدة كنت قد جلست فى الكرسى الذى أشارت إليه . . قد تظننى مجنوناً ولكن ذلك خير من أن تظننى مريضاً . ونجحت الخطة ولم تر (مسز درو) منى إلا جسمى الطويل العريض وابتسامتى المشرقة .

أما (مسز درو) فقد وجدتها امرأة فى الحلقة الخامسة من عمرها ، جميلة أنيقة كأنها ممثلة سينما ، هادئة كأنها صديقة قديمة . ودار بيننا حوار لطيف لم أشعر معه بأنه امتحان إلا عندما أخبرتنى فى النهاية أنها قد أعجبت بى ، وبعملى الفنى . وأنها ترشحنى للوظيفة المطلوبة .

ثم حددت لى مواصفات الوظيفة . فقالت إنها وظيفة ذات مستقبل باهر وإن عدداً كبيراً قد تقدم للوظيفة وقابل مسز درو (ولكنها شخصياً تفضلنى أنا .) ليه ؟ . ما تفهمش . أما المرتب فهو (٧٠ دولاراً) فى الأسبوع (بزيادة ٢٥ دولاراً عن مرتبى فى المخازن) وفى يوم الجمعة من حقى أن أخرج فى الثالثة ظهراً بدلا من الخامسة لأذهب إلى السوق وأشترى طلبات الأسبوع . هذه لفتة إنسانية كريمة .

كل شىء على ما يرام إذن . وهل العمل فى هذا المبنى ؟ لا . إن (مسز درو) ليست موظفة فى الشركة . إنها صاحبة مكتب استخدام (مكتب عمل خاص) وأصحاب الأعمال يعلنون عن الوظائف الخالية فى شركاتهم ثم يطلبون منها أن تمتحن المتقدمين نظير أجرة . وإذن أين الشركة التى سأعمل بها ؟ . .

إنها خارج ملبورن . وسوف تكتب لى (مسز درو) خطاباً لأذهب به إلى الشركة حتى لا تضيع منى الوظيفة . وقبل الخطاب رفعت سماعة التليفون وطلبت صاحب الشركة وحدثته عنى حديثاً مستفيضاً ، ثم وضعت السماعة وغمزت لى بعينها دلالة على أن كل شىء على مايرام .

ثم كتبت الخطاب بنفسها على ماكينة الكتابة الموجودة بجانبها ووضعته فى ظرف أنيق عليه عنوان الشركة وأوصتنى بأن أطير إلى الشركة ثم ودعتنى

بابتسامة جميلة والتمنيات الطيبة .

خرجت إلى الشارع وفى يدى الخطاب الثمين وطرحت جانباً فكرة الرجوع إلى البيت لتناول الغداء وأسرعت إلى محطة (فلندر) وقطعت تذكرة ذهاباً وإياباً إلى الضاحية المطلوبة (وهالنى ثمن التذكرة) واستنتجت أنها بعيدة جداً . ولكنى تذكرت أن (مسز درو) أخبرتنى بأننى سأجد صاحب الشركة فى انتظارى .

ركبت القطار الذى ظل (يرقع) بى ساعة ونصف ساعة حتى وصلت إلى المحطة المنشودة وقد أوشكت الشمس أن تغيب .

كنت الوحيد الذى هبط إلى هذه المحطة ونظرت فلم أجد أحداً ولا شيئاً . وجدت نفسى فى صحراء قاحلة ليس فيها أى مبان ولا أى دليل على العمران ولا على وجود صاحب العمل ولا غيره . ماذا أفعل ؟ هل أستطيع أن أصل إلى الشركة بمفردى ؟ هل تظل الحيرة تقابلنى طوال أيامى فى أستراليا ؟ وكيف أبحث عن مكان الشركة ؟ هل أستطيع المشى والبحث فى هذه الصحراء وأنا الذى أتنقل فى منزلى بصعوبة ؟ ولكنى قلت : لن أتراجع . هذه وظيفة عظيمة جديرة بالتعب ، ولعل تغيب صاحب العمل نوع من الامتحان لقدرتى ونشاطى فليمنحنى الله القوة على الوصول إلى مكانها .

اخترت اليمين اتجاهاً وسرت بجوار شريط القطار (حتى لا أتوه) فى اتجاه مضاد لاتجاه القطار . لم يكن الطريق ممهداً بل كان مليئاً بالتراب والصخور ولا تبدو له نهاية ، وقد أقبل المغيب ينشر ظلامه على الكون ، وبدأت الرياح الباردة تصفر وأنا أترنح فى سيرى كالسكير دون أن أعلم

هل أسير فى الاتجاه الصحيح أم لا . ثم سرت حوالى (٢ كيلو) وأنا لا أبتعد عن شريط القطار . وأخيراً لاحت لى دلائل العمران . وجدت مبنى ينبعث الدخان من مدخنته وقرأت على الباب لافتة عرفت منها أن هذا المكان مدرسة .

دفعت الباب ودخلت بأمل أن أجد أحداً أسأله عن مكان الشركة . وفى الداخل وجدت سيدة وبيدها مكنسة وهى تكنس وتصفر فأريتها الظرف وعليه العنوان فهزت رأسها قليلا ثم قالت إننى أسير فى الاتجاه الصحيح ، ولكن المكان ما يزال بعيداً بعض الشىء .

خرجت من المدرسة وأنا لا أقدر على جر جسمى من التعب ، وقد علانى التراب والغبار ، ثم واصلت السير حتى وصلت إلى الشركة ، وعند ذلك وقفت مذهولا وقد انتابنى ضحك عصبي تغلبت عليه بصعوبة شديدة . . هل هذه هى الشركة التى حفيت حتى وصلت إليها ؟

كانت الشركة ذات المستقبل الباهر مبنى صغيراً حقيراً من الصاج لا يزيد حجمها كله عن حجم حجرة صغيرة .

هل أعود من حيث أتيت ؟ . . إن شركة حقيرة كهذه جديرة بأن تمتص دمى حتى الثمالة فى مقابل كل دولار تدفعه لى . ومن ناحية أخرى بفرض أننى اشتغلت فيها فكيف أصل إليها كل صباح ؟ هل أسير هذه المسافة المخيفة كل صباح ؟ هكذا رفضت الوظيفة المأمولة بينى وبين نفسى ، ولكنى طرقت الباب بأمل أن يعيدنى صاحب الشركة – على الأقل – بالسيارة إلى محطة القطار .

رد على صوت من الداخل قائلا : ادخل . دخلت فلم أجد أحداً

ولم أجد شيئاً . وجدت حجرة ضيقة باردة شبه مظلمة عارية إلا من بعض الصــور الملقاة هنا وهناك كأنها مكان مهجور أين إذن من رد علىّ ؟ .

وقفت فى مكانى فى انتظار ظهور صاحب الصوت . وأخيراً ظهر من شق فى الحائط كأنه عفريت . . كان رجلا من الصعب تحديد عمره ، بيده فرشاة ألوان وثيابه مغطاة بالألوان كأنه مهرج فى سيرك . سألنى عما إذا كنت الموظف الجديد الذى كلمته عنه (مسز درو) فأجبت بالإيجاب ، وعند ذلك صحبنى إلى فراغ ميكرسكوبى بجوار الباب عليه لافتة مضحكة تقول . الإدارة . هذه الإدارة التى لم أجد فيها إلا منضدة خشبية رخيصة وكرسيًّا واحداً تهالكت عليه منتهزاً هذه الفرصة للراحة بعد الهلاك الذى تعرضت له فى الطريق .

قرأ الرجل خطاب (مسز درو) ثم وضعه على المنضدة وبدأ حديثه بالاعتذار عن عدم انتظاره لى على المحطة لانشغاله بعمل مفاجئ . لم أهتم باعتذاره بل لم أهتم به ولم أتابع حديثه ، بل جعلت أنظر إليه وأنا أشعر برغبة شديدة فى أن أخنقه لغروره وتصوره أن هذه الحقارة (الصاج) شركة يعلن أحد من أجلها عن طلب موظفين ويتعب معه أولاد الناس من المهاجرين .

كان كل ما يهمنى منه هو أن يعيدنى إلى المحطة بالسيارة فإنه من المستحيل أن أعود هذه المسافة على قدمى . ولعله كان يجب أن أخفى ما يدور فى نفسى – على الأقل حتى أحظى بهذه المنحة – ولكنى لم أستطع أن أخفى استخفافى به وبشركته ذات المستقبل الباهر ، فسألته عما إذا كان (المشى) هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى مقر الشركة ؟ فأجابنى بأننى أستطيع شراء

عربة (منعت نفسي بصعوبة من أن أسأل : على إيه ؟) وأجبته بأنني لست على استعداد لشراء عربة فى الوقت الحاضر لأنني أجهل القيادة ، وعند ذلك عرض على أن أسكن فى هذه القرية لأكون قريباً من العمل . ولكنى رفضت هذا العرض السخيف وأخبرته بأننى لا أستطيع أن أترك ملبورن . (كأنها بلد أبويا ! !) .

هكذا ملأ النفور والجفاء لقاءنا الأول والأخير ، وخفت أن يداهمنى النوم وأنا فوق هذا الكرسى . فاستأذنت فودعنى إلى الباب ولم يعرض أن يصحبنى بالسيارة ، بل تركنى ودخل وأغلق الباب الصاج خلفه .

وجدتنى مرة أخرى فى العراء والظلام والبرد والتراب والرياح ، ثم فوجئت بالمطر مصاحباً لسيمفونية « القرف » هذه . تنهدت ورفعت ياقة الجاكتة وأخفيت صورى داخل القميص حتى لا تبتل . ثم بدأت مشوار العودة . لم أعد من الطريق الذى أتيت منه لأننى استنتجت أن المسافة الباقية على المحطة السابقة لابد أنها أقصر كثيراً من المسافة الأولى .

هكذا سرت إلى الأمام ، وكان هذا أسوأ قرار اتخذته فى ذلك اليوم الغريب . . اتضح لى أن استنتاجى خاطئ وأن المسافة الباقية هى (ضعف) المسافة السابقة واتضح لى (أيضاً) أنه لا يوجد طريق على الإطلاق للوصول إلى المحطة . .

وجدت نفسى أتسلق تلالا وأهبط أودية وأرى شريط القطار أحياناً تحتى بمسافة طويلة . وأحياناً أخرى أراه فى السماء وأنا على السفح . وكان المطر قد ازداد ونفذ من ثيابى إلى جسمى وأغرق رسومى ، وأخذ الهواء يعصف بى ويقتلعنى من مكانى ، ومن بعيد كانت تتردد أصداء صيحات الحيوانات

الغريبة (دعوت الله ألا تكون ذئاباً) وازدادت آلام ظهرى حتى كدت أقع على الأرض ، وأخيراً وصلت إلى محطة القطار ، وكانت مرتفعة قليلا عن الطريق العادى ، فصعدت إليها فوجدت بوابة خشبية صغيرة مفتوحة فدخلت منها ، ووقفت فى انتظار القطار . ثم جاء القطار وهممت بالتوجه إليه ولكنى تراجعت لقد انتبهت إلى أننى لا أعرف الاتجاه إلى ملبورن . لقد أفقدنى كل ما مر بى القدرة على إدراك الاتجاه الذى أسير فيه فلم أعد أعرف أقادم هذا القطار من ملبورن أم متجه إليها .

وجدت شخصاً بجانبى فسألته وعرفت منه أن هذا القطار قادم من ملبورن أما القطار المتجه إلى ملبورن فهو يقف على الرصيف المقابل . سألته عما إذا كنت أستطيع أن أهبط من الرصيف المرتفع إلى فراغ القضبان ثم إلى الرصيف المقابل أم أن الأفضل أن أخرج من المحطة كلها وأدور نصف دورة خارج المحطة فأجابنى بأن هذا هو الأفضل .

وقد يبدو سؤالى ساذجاً لا هدف له ، ولكنى تعلمت أن فى أستراليا قوانين غريبة لتنظيم أمور قد لا نراها نحن محتاجة إلى تنظيم . من ذلك مثلا القانون الذى ينظم المرور ، فالذى يخطئ فى المرور يدفع غرامة (١٠ دولارات) فوراً لجندى المرور . والذى يركب بدون تذكرة يدفع غرامة (٥ دولارات) للكمسارى بدون كلام أو حديث . وأشياء كثيرة مثل هذه علمتنى أن أحتاط فى كل خطواتى حتى لا أتعرض لمخالفة القوانين متذكراً المثل القائل : (إن كنت فى روما فتصرف كما يتصرف الرومان) .

غادرت الرصيف واتجهت إلى البوابة الخشبية التى دخلت منها ، ورأيت أنها ليست مفتوحة كما كانت منذ دقائق ، بل وجدتها مربوطة بدوبارة

صغيرة فتصورت أن طفلا عابثاً ربط هذه الدوبارة (ولو أننى لم أر أطفالا فى المحطة) نزعت الدوبارة وفتحت البوابة وخرجت إلى الشارع . فيها حاجة دى ؟

ومع ذلك قامت القيامة وفوجئت بهرج ومرج وبصيحات غضب واستنكار تملأ المحطة كلها ، ولم أتصور أن هذا كله له علاقة بى ، فتابعت سيرى وإذا بى أفاجأ بشابين يجريان خلفى ثم يسبقاننى ويعترضان طريقى ويأمراننى بالوقوف فى غضب شديد . . وقفت وعند ذلك رأيت ما غابت عنى ملاحظته من قبل . كان ركاب القطار قد تجمهروا حولى ينظرون إلى فى فضول وذعر ، بعضهم يتحدث ويشير إلى ، وبعض الفتيات قد انتحين جانباً قصياً وهن ينظرن إلى ويتكلمن فى هستيرية شديدة .

يا ساتر يارب ؟ ماذا حدث ؟

أفقت على صياح الشابين اللذين أمرانى بالوقوف ، وهما يأمراننى بالعودة معهما . سألتهما عن السبب ، ولكنهما كررا أمرهما لى وهما ينظران إلى نظرات مستريبة كأنما يتوقعان أن أخرج من جيوبى مدفعاً أو قنبلة أو ثعباناً . . كررت سؤالى إياهما ! فأجاب أحدهما بأننى لا أستطيع أن أنكر أننى فتحت البوابة الخشبية . أليس كذلك ؟ فأجبت بأننى فتحت البوابة وأننى لا أنكر ذلك ولكن ماذا فى ذلك ؟ ولكنهما اقتربا منى وهما مازالا ينظران إلى فى خوف وتوجس وأمرانى بأن أسير معهما بالتى هى أحسن .

سرت معهما تتابعنى نظرات الجمهور وصيحاته وتعليقاته العدائية حتى وصلنا إلى مكتب ناظر المحطة ، فوجدت الناظر ينتظر وهو فى أشد حالات الغيظ والسخط ، وبجانبه موظف شاب يحمل فى يده قضيباً حديدياً يلوح

به نحوى كأنما ليحذرنى بأنه سيهوى به علىّ عند أول حركة عدائية تبدر منى ، كالعض مثلا أو الخربشة . .

أمرنى الناظر بالجلوس وعدم الالتجاء إلى العنف (إذا كنت عاقلا) . واجتمع الأربعة حولى وهم يتصايحون وأنا لا أفهم شيئاً من كلامهم . وفى النهاية اتفقوا على أمر . فقدم لى الناظر استمارة مطبوعة طلب منى أن أجيب عما فيها من أسئلة .

أخذت الاستمارة وقرأت أول سؤال فيها وإذا هو : لماذا ارتكبت هذه الجريمة ؟ . .

جريمة ؟ أنا ارتكبت جريمة ؟ ما هى جريمتى ؟ سألت الناظر (وقد هدأ قليلا) فأجابنى بأننى اعتديت على أملاك (الكومون ويلث) ! !

قال إننى فتحت البوابة فسمحت لركاب القطار بدخول المدينة دون تسليم تذاكرهم فالقطار فى أستراليا ليس فيه كمسارى ، وإنما كل راكب يسلم تذكرته عند دخول مدينته .

كانت الدوبارة المربوطة فى البوابة إذن دوبارة (رسمية) والذى وضعها هو واحد من هؤلاء الموظفين المجانين وليس طفلا عابثاً كما تصورت .

كانت محاولتى (النبيلة) لاحترام النظام هى التى قادتنى لارتكاب هذه الجريمة ، لغاية كده كويس . والعقوبة ؟

غرامة لا تقل عن (٢٠٠ دولار) أو السجن لمدة لا تقل عن سنة ! !

حاولت أن أتذكر أنا اصطبحت بوجه من فلم أستطع ، وقرأت فى وجه الناظر أنه من الأسهل على أن أقنعه بأن الأرض ليست كروية من أن أقنعه ببراءتى وحسن نيتى . .

واستحثنى الناظر على الإجابة ، فبدأت أجيب . ولاحظت وجود أسئلة عن السوابق الإجرامية وعن أشياء أخرى لو تحققت لكنت واحداً من رجال العصابات .

ولاحظت أيضاً شيئاً طريفاً فى سلوك الناظر وأعوانه . ذلك عندما أجبت عن الأسئلة الخاصة باسمى وعنوانى فلم يطلب واحد منهم منى إثباتاً لصدق ما أقول . لماذا ؟ . لأنهم لا يتصورون أننى أكذب . لأنهم لا يعرفون الكذب فى الحقيقة . فأنا قد أكون فى نظرهم مجرماً خطيراً . ولكن من المستحيل أن أكون كاذباً .

وتعمدت فى إجابتى أن أوضح تاريخ دخولى إلى أستراليا آملا أن شخصاً (عاقلا) سوف يقرأ هذه الإجابة ويرحمنى من نتائج (جريمتى) .

والظاهر أن طاعتى وامتثالى وجدا طريقهما إلى قلب الناظر وأعوانه فكفوا عن تهديدهم ، وتمالكوا روعهم ، وانصرف بعضهم إلى عمله حتى انتهيت من الإجابة . ثم سلمت الاستمارة إلى الناظر ، وسألته عن نتيجتها ، فأجابنى بأنها سوف تأخذ طريقها إلى (محكمة أمن الدولة) حيث يحدد القاضى جلسة لسماع دفاعى ، فإذا كان المحامى الذى سوف أوكله بارعاً كانت العقوبة (غرامة ٢٠٠ دولار) وإلا فالسجن . .

ما شاء الله . . خرجت إلى الرصيف وأنا لا أكاد أرى ما أمامى حزناً وتعباً وغيظاً وسرت على الرصيف وماء المطر يتقاطر من ثيابى حتى جاء القطار – أخيراً – وركبته ووصلت إلى (محطة فلندر) فى ملبورن .

كانت هذه المفاجأة الأخيرة قد عصفت بكل أمل لى فى أى شىء وخرجت من القطار وأنا فى حالة من اليأس الأعمى جعلتنى أفقد الشعور بكل

شيء إلا الشعور المؤلم بالمستقبل المظلم .

عند باب الخروج وجدت كمسار يين يقفان بجوار الباب أحدهما متقدم فى السن والثانى شاب . تقدمت إلى العجوز وحكيت له قصتى آملا أن يهدينى إلى شيء وسط ما يحيط بى من ظلام . ولاحظت فى أثناء حديثى أن الكمسارى الشاب كان يصغى إلى كلامى دون أن يتدخل وفى النهاية هز العجوز رأسه وأكد ما قاله لى ناظر المحطة من قبل .

خرجت من باب المحطة وأنا أنتزع خطواتى انتزاعاً ، وعند ذلك فوجئت بشخص يجذبنى من يدى لأتوقف . كان الكمسارى الشاب الذى سمع قصتى وأنا أقصها على زميله العجوز . سألنى فى بشاشة حلوة : إيطالى ؟ قلت : مصرى قال : أنا إيطالى واسمى (تونى) صافحته وقال لى : لقد سمعت قصتك كلها ، وأحب أن أقول لك ألا تهتم بها لأنها كلام فارغ ، ولن يحدث لك شيء .

حدقت فيه غير مصدق ، ولكنه قال : نحن الأجانب يجب أن يساعد (بعضنا بعضاً) . صدقت على كلامه من أعماق قلبي . وعند ذلك قال لى : عندما يأتيك خطاب المحكمة احضره إلىّ وسوف أساعدك . ثم ذكر لى مواعيد عمله بدقة وأكد على بضرورة الحضور بمجرد تسلمى الخطاب،وهل كنت بحاجة إلىّ هذا التأكيد ؟ وفى النهاية طلب منى أن أعود إلى منزلى مبتسماً ، فالمسألة كلها لا تستحق الحزن . ماذا كنت أستطيع أن أقول أمام ذلك الوجه الباسم والقلب الكبير ؟ شكرته وسرت بروح جديدة حتى وصلت إلى محطة الأتوبيس ، وما كدت أقف حتى فوجئت (تونى) يجرى خلفى ويخبرنى بأنه فكر فى خطة جديدة ؟

قال لى : لا داعى لأن تنتظر الخطاب . أعطنى عنوانك لأن الخطاب سوف يمر من هنا وسوف أترقبه وأتسلمه وأمزقه . . هل هذا ممكن ؟ ممكن جداً أعطيته عنوانى وعبرت له عن امتنانى ، وجاء الأتوبيس ، فركبت ووصلت إلى البيت .

كان أول ما فعلته هو أن خلعت ثيابى المبتلة ولبست بيجامة ثم قصدت إلى المطبخ وأخرجت دجاجة من الثلاجة ووضعتها فى ماء مغلى على النار . وفى الفرن وضعت (برام رز معمر) . وما هى إلا لحظات حتى كنت أجلس فى المطبخ الدافئ وأمامى دجاجة سمينة ورز معمر وحساء دسم وطبق تفاح .

شيئاً فشيئاً تناسيت متاعب اليوم ومفاجآته الغريبة وآلام ظهرى وجسمى ونفسى ، وجعلت أمصمص عظام الدجاجة وأنا أفكر فى الغد ومايأتى به .

لم يصلنى خطاب المحكمة قط . أما (تونى) فقد ذهبت إليه ألف مرة بعد ذلك لأشكره ولكنى لم أجده . ولم أستطع الاهتداء إلى مكانه قط . حتى إننى كنت أشك فى بعض الأحيان أنه كان شخصا حقيقيًّا . ولم أحزن على شيء قدر حزنى لأننى لم أقابله بعد ذلك . ولكنى لا أعتقد أنه تذكر شيئاً فيما بعد ، أو أنه انتظر شكراً ، فإن صاحب قلب نبيل مثله إنما يفعل الخير دون أن ينتظر الشكر . بل ربما دون أن يعرف أنه يصنع الخير .

واصلت البحث عن وظيفة مناسبة ، وفى النهاية فقدت الأمل فى الوظيفة (المناسبة) ، فبدأت أبحث عن وظيفة تكون (أحسن شوية) من عملى فى المخازن ،فنجحت فى الحصول على وظيفة (ضابط بريد) . وهى الوظيفة التى وجدتها وفقدتها فى ثانى يوم وصلت فيه إلى ملبورن . واتفقت مع موظف

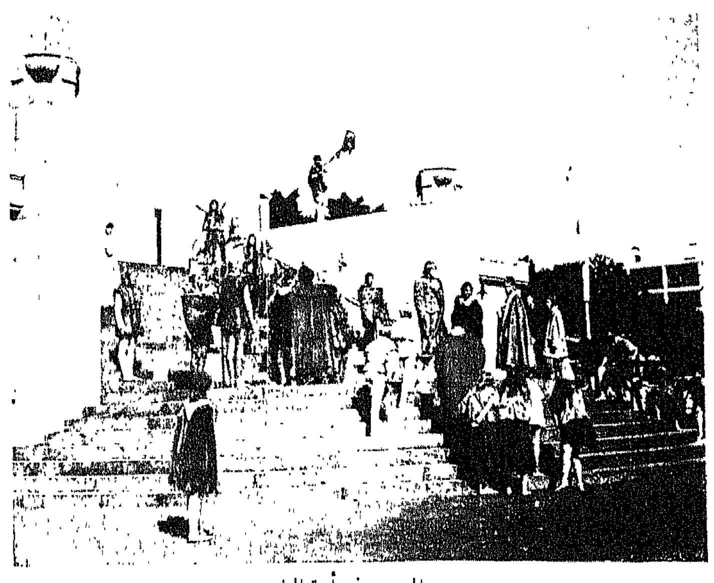
(شئون العاملين) على أن أبدأ عملى الجديد بعد أسبوعين (وهى المدة التى رأيتها كافية لكى أقف على أقدامى بشكل معقول . ثم لكى أستقيل من المخازن) وكنت فى نفس الوقت أذهب يومياً إلى طبيب المخازن حيث كنت أجلس وأعرض موضع الانزلاق الغضروفى لشعاع كهربائى لمدة دقائق . الطريف أن الممرضة هى التى كانت تبدأ بتشغيل ذلك الجهاز ثم تطلب منى أن أغلقه عندما أسمع الجرس (وهو موعد انتهاء المدة) .

انتهت مدة العلاج (القانونية) ، وعدت إلى المخازن . وقد حرصت على أن أقدم استقالتى فى نفس اليوم ، فالنظام يقضى بأن العامل المستقيل يقضى أسبوعاً فى عمله بعد تقديم استقالته حتى يتمكن أصحاب العمل من تدبير غيره .

كان أسبوعاً ناعماً ، وقد لاحظت أن استقالتى أكسبتنى احترام الجميع ، فالمعتاد هو الفصل وليس الاستقالة . ولم يعيدونى إلى الحجرة الخشبية المشئومة ، فقضيت الأسبوع على مزاجى أدخن كما أشاء وأتكلم كما أشاء ، وعادت المياه إلى مجاريها بينى وبين جيـــدو . ومضى الأسبوع وقبضت راتبى ومكافأتى عن مدة العمل السابقة (أجر يوم وربع عن كل شهر) ثم صافحت مستر ويزرز الذى تمنى لى مستقبلا سعيداً وودعت المخازن إلى الأبد .

هذا عن العمل .

أما عن الفن فقد بدأت أدرس المسرح فى أستراليا ، ووجدته مختلفاً كثيراً عن المسرح فى بلادنا ، فهو أولا ليس أسترالياً ، بمعنى أن ما يعرضه ليس إنتاجاً أسترالياً . إنه مسرح تجارى لا يهمه مجتمع أستراليا ومشاكله



المسرح فى أستراليا

وتطوره . كل ما يهمه هو (الدولار) . والدولار يأتى من السلعة الرائجة الناجحة . فكل المسرحيات (مستوردة) من أوربا وأمريكا بعد أن تكون قد أخذت حظها من الدعاية والنجاح وتحدثت عنها صحف العالم بما (يضمن) نجاحها فى أى مكان . عند ذلك (يستوردها) أصحاب المسارح ويعرضونها كما هى على الجمهور الأسترالى .

أما المؤلف الأسترالى فلن يجد من يسأل عنه فى أستراليا ، ولذلك يبعث إنتاجه إلى إنجلترا التى ترحب حقًّا باستمرار بالإنتاج الجديد ، وعندها الجمهور

والوعى (وربما الهدف السياسى) لقراءة الإنتاج الأسترالى وتقديمه إلى دائرة الضوء .

وأما أصحاب المواهب الأخرى فى التمثيل والرقص والغناء فإنهم (يضافون) إلى المسرحيات المستوردة توفيراً لنفقات استيراد الكومبارس ، أو يشتركون فى مسرحيات هزلية خفيفة لاترقى إلى مستوى المسرح الجاد .

يضاف إلى ذلك أيضاً مجموعة من فرق الهواة تقدم المسرحيات المحلية والعالمية على مسارح متواضعة فى الضواحى .

فالدولة فى أستراليا لا يهمها أن يتقدم المسرح أو يتأخر . الحقيقة أنها تبدو وكأنها لا يهمها أن يتقدم أى شيء أو يتأخر . إنها مفتوحة مثل (سوق عكاظ) لكل من يستطيع أن ينتج فى أى مجال بشرط ألا ينتظر تشجيعاً أو عطفاً أو تقديراً من أى لون . منه للجمهور ! !

هذا عن المسرح الأسترالى ، فكان لابد من أن أتجه إلى الجالية العربية . وجدت أمامى خمسين ألف عربى بدون مسرح عربى . بدون سينما عربية . بدون جريدة أو مجلة . بدون أى شيء إلا الذكريات العميقة التى تربطهم ببلادهم .

هذا هو (الوادى) الذى قررت أن (أصرخ) فيه . . وصادف قرارى شهر مارس ، شهر الذكرى السنوية لابن مصر العظيم (سيد درويش) . كان لابد أن أحتفل بذكرى الحبيب الخالد . ولكن ما الذى كنت أستطيع أن أفعله وأنا لا أعرف أحداً ولا أملك شيئاً ولا أرى أينما وجهت وجهى مجالا للاحتفال بذكرى سيد درويش .

كان هذا هو التحدى الذى واجهنى ، وقد رحبت به . قلت :

سيد درويش هو نقطة البدء ، وسوف أبدأ بتعريف أبناء الجالية العربية بسيد درويس وفن سيد درويش .

ليس عندى مكان أحتفل فيه وليس عندى أسطوانات ولا شرائط ولكنى أحفظ أغانى سيد درويش وأعرف تاريخه كأنه تاريخى الشخصى .

قصدت (الأب بولس الخورى راعى كنيسة سيدة لبنان) وهو رجل نبيل وأديب ممتاز ، وعرضت عليه أن ألقى محاضرة فى ذكرى سيد درويش ، فوافق ورحب وتطوع بأن يدعو بنفسه جمهور المصلين لسماع المحاضرة بعد الصلاة .

ضمنت المكان والجمهور إذن ، وكتبت المحاضرة ، ثم عكفت على تحفيظ زميلىّ (فهمى حافظ ورشدى حنا) مجموعة من أغانى سيد درويش

ولم يكن عندى مكان أستطيع فيه أن أجرى بروفات ، لم يكن من السهل القيام بالبروفات فى منزلى لأن (روائع) سيد درويش تتحول فى أسماع الأجانب إلى (شوشرة) نستحق عليها المؤاخذة . بدأنا البروفات فى حديقة عامة كنا نقصدها كل مساء بعد أعمالنا ونستمر فى الغناء والحفظ والتدريب حتى يوم ١٧ مارس ، فذهبت ومعى زميلاى إلى (كنيسة سيدة لبنان) وهناك وجدنا مفاجأة رائعة فى انتظارنا ! ! ثلثمائة عــربى أحضرهم (الأب بولس الخورى) لسماع المحاضرة وللاحتفال بذكرى سيد درويش .

كانت المحاضرة شيئاً طريفاً للحاضرين ، وزادتها الأغانى طرافة ، وانتهت المحاضرة ولم ينصرف الجمهور ، بل جلسنا جميعاً فى شبه ندوة نتحدث عن سيد درويش ، وعرفنى الناس وعرفت أيضاً شخصيات هامة فى المحيط العربى مثل (دكتور ناصح ميرزا) و(غالب نصر الدين) و(إدموند ملكى) .





ذكرى « سيد درويش »



ذكرى « سيد درويش »

فى غمرة سعادتى سألنى (دكتور ناصح ميرزا) عن مشروعاتى فى أستراليا فقلت له إننى أنوى تكوين فرقة مسرحية لتقديم المسرح العربى ، فضحك فيما يشبه الاستخفاف ، وقال إن هذا حلم بعيد التحقيق خصوصاً لشخص لم يمض عليه أكثر من شهرين فى أستراليا ، والأفضل أن أنتظر بضعة أعوام حتى أعرف البلد والناس . واستشهد فى كلامه بكفاحه هو فى تكوين (الرابطة العربية) التى أمضى أعواماً حتى تمكن من تكوينها ، وأشار إلى الصعوبات الجمة التى يلاقيها فى سبيل تجميع المواطنين العرب لأى سبب .

لم تعجبنى إجابته ، وصممت على أن أثبت له أننى قادر على تحقيق ما يراه مستحيلا ، وأكدت له أنه سيرى نتيجة عملى فى خلال أشهر . وفى هذه الليلة ولدت فى خيالى (فرقة أضواء القاهرة) ، وبدا بعد ذلك أن الظروف كانت فى جانبى لأن وظيفتى الجديدة (ضابط بريد) كانت وظيفة مسائية (من الثانية ظهراً إلى العاشرة مساء) فكانت تعطينى الراحة الكافية والوقت الكافى للتخطيط والتنفيذ .



أضواء القاهرة

لم أنم لحظة واحدة فى هذه الليلة . .

الحقيقة أنني نمت وخططت (كمان) ، ومع ذلك فإن الأقرب إلى الصدق هو أن أقول إننى لم أنم ، فإن آخر ما كان يدور فى فكرى وأنا أتقلب فى الفراش هو ذلك التحدى الذى كنت أستعد له . وكان هو أيضاً أول ما ملأ ذهنى بمجرد استيقاظى .

كان داخلى يغلى ويفور برغم شدة البرودة التى تملأ الجو . ولم يكن غليان الغيظ والعجز على أى حال . كان غليان الحماس والانفعال بما أنا مقدم على تنفيذه .

كان اليوم التالى لذكرى (سيد درويش) إجازة رسمية . وتقابلت مع (فهمى ورشدى) وأخبرتهما أننى (خلاص) كونت فرقة (أضواء القاهرة) وأننى أنوى افتتاح برنامج الفرقة بمسرحية (سيد درويش) .

وفى هذه الجلسة نفسها بدأت أوزع الأدوار ، فأعطيت (رشدى) دور (سيد درويش) و (فهمى) دور (محمود مرسى) صديق سيد درويش . ولم أعط نفسى دوراً لأتفرغ للإخراج . ولما كانت المسرحية تحتوى على (٣٠ شخصية) فقد كان الباقى هو (٢٨ ممثلا) فقط . ! !

كيف كنت أتصور أن الفرقة ستكتمل ؟ أين باقي الممثلين ؟ الميزانية ؟ الملابس ؟ الديكورات ؟ الموسيقى ؟

ولكني كنت واثقا بأنه يكفيني أن أبدأ الخطوة الأولى لكي يتم كل شيء . من أين واتتني هذه الثقة ؟ على أي أساس بنيتها ؟ لا أدري . ولكن إيماناً غريباً ملأ نفسي بأنني سوف أنجح . كنت كمن يرى الغيب أو من يتنبأ به . .

هكذا كتبت إعلانات عن تكوين (فرقة أضواء القاهرة المسرحية) وأعلنت عن (ترحيبها) بكل من يهوى التمثيل والغناء . بل إنني حددت في الإعلانات تاريخ افتتاح الموسم بعد شهرين من هذه البداية .

وعلقت الإعلانات في كل المطارح العربية مثل (البيت اللبناني) و (المركز الإسلامي) و (كنيسة سيدة لبنان) و (الرابطة العربية) .

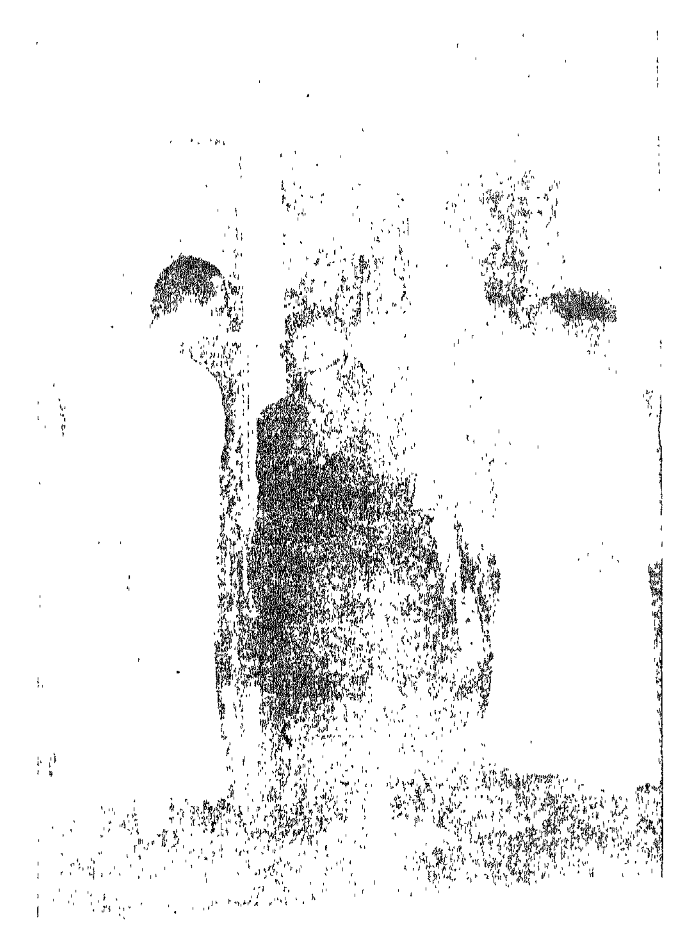
ثم بدأت البروفات في صالة (كنيسة سيدة لبنان) التي أعطاني (الأب بولس الخوري) تفويضاً كاملا باستخدامها في أي وقت أشاء .

بدأت البروفات وليس معي إلا (فهمي وبثينة)

بعد يومين حل في منزلي مصريان جديدان : (هنري دبوس) و (سمير فوزي) مهندسان شابان بينهما قرابة وزمالة في الجامعة . وقبل أن يبحثا عن عمل عرضت عليهما الانضمام إلى الفرقة فانضما إلى الفرقة .

بقي إذن (٢٦ ممثلا) وبقيت البطلة . . . بسيطة . . ولكن البطلة نفسها هي التي بحثت عني .

فتاة مصرية جميلة موهوبة اسمها (برناديت مهران) سمعت بذلك النشاط الغريب الذي يدور في (كنيسة سيدة لبنان) فتقدمت إلى (الأب



مسرحية « سيد درويش »

بولس الخورى) تطلب منه (مساعدتها) على انضمامها إلى الفرقة فأحالها (الأب بولس) إلىّ .

كانت (برناديت) موهوبة فى التمثيل والغناء والرقص وحضور البديهة والحفظ والقدرة على التعبير . كانت لقية ثمينة بكل معنى الكلمة .

وبانضمام (برناديت) زالت أكبر العقبات التى واجهتنى . وبعدها تقاطر الأعضاء .

جاءنى ابنا العم (تونى شهلوب) و(إلياس شهلوب) . ثم جاءتنى فرقة موسيقية كاملة ، القائد فيها مصرى إيطالى اسمه (ريكاردو ماتسا) وكان قد سبقنى إلى أستراليا بسنوات ، ونجح فى فرض اسمه ومواهبه فى الإذاعة والتليفزيون ، ثم سمع عن الفرقة المصرية الوليدة فأقبل سعيداً يعرض خدماته .

لم يمض أسبوعان حتى صار معى ممثلون أكثر مما أريد . ولم يغب عن ذهنى أنهم جميعاً حديثو العهد بالعمل المسرحى وما يتطلبه من جهد ومشقة ، وأننى قد أفاجأ ببعضهم يتخلى عن الفرقة فى منتصف الطريق بعد أن يتضح له أن الحكاية ليست (لعباً) كما كان يتصور . ولم يكن عندى ما أستطيع أن ألزم به أحداً على البقاء معى . لم أكن أمنح مرتبات (طبعاً) ، وبالتالى لم أكن أستطيع أن أفرض عقوبات . وكان العضوان المؤسسان (فهمى ورشدى) قد تكاسلا عن حضور البروفات ، ثم جاء وقت اختفى فيه (رشدى) تماماً ، وأما (فهمى) فكان يحضر البروفة بدون أن يتذكر كلمة واحدة مما قمنا به فى البروفة السابقة .

أمام ذلك لجأت إلى شيء هدتنى إليه ظروف العمل . أشعرت كل ممثل



مسرحية « سيد درويش »

وكل ممثلة بأنني أستطيع أن أستغنى عنه أو عنها فى أى وقت ، فلجات إلى تغيير الأدوار باستمرار حتى يشعر كل عضو بأن الفرقة تستطيع أن تستمر بدونه ، وأنه (هو) الخاسر إذا تكاسل أو تهاون .

ووضعت نظاماً يقضى بأن من يتغيب بروفة (واحدة) يخرج من الفرقة ، ونجحت هذه الطريقة نجاحاً رائعاً ، وتماسك أعضاء الفرقة بشكل تحسدنا عليه أى فرقة مسرحية فى القاهرة .

وبعد أن اختفى (رشدى) أعطيت (هنرى دبوس) دور (سيد درويش) ولكنه لم ينجح فيه . كان هنرى يملك صوتاً جميلا . وذهناً

عمليًا ممتازا ، ولكنه كان محدودا في التمثيل ، فسلمت له [illegible] .
وعهدت إليه بأن يساعدني في النواحي الإدارية على أن أتفرغ أنا في أدوار
فردية وجماعية على المسرح ، ووقفت أنا بدور (سيد درويش) وسارت
القافلة .

اشتريت أقمشة مختلفة للرجال والنساء ، وقمت بتصميم (جلاليب
وفساتين مصرية) في منزلي . كنت أرسم تصميم الجلاليب على الورق ثم أسلم
التصميم والقماش لصاحبة منزلي فتحولها إلى ثوب مصمم على ماكينة
خياطتها .

لم تكن صاحبة المنزل تفهم أهمية نشاطي أو معناه . ولكنها كانت تراني
مخلصاً فيه ، فساعدتني وأفرغت لي كل أوقات فراغها .

وفي مخزن (كنيسة سيدة لبنان) عثرنا على كمية هائلة من الأخشاب
سرعان ما أحلناها إلى ديكورات للمسرحية بالألوان والزيت .

أما الإكسسوار من الكراسي المصرية والسجاجيد والشلت والشيشة
وما إلى ذلك فإننا درنا على كل البيوت العربية القديمة في (ملبورن) وجمعنا
ما فيها . وكان كل من نقصده يساعدنا بأقصى ما يستطيع .

ومع ذلك لم يكن الطريق مفروشا بالورد تماما . قابلتني عقبات كثيرة
حللت بعضها وتركت بعضها الآخر للزمن يحله كما يشاء .

من أولى هذه العقبات ما لمسته في معظم (الممثلين) من عجز عن حفظ
الحوار وحفظ الحركة والقدرة على التعبير . وكان يقابل هذه العقبة من
ناحية أخرى الإخلاص الرائع الذي كان يلازم جميع الممثلين . فاعتمدت
على الإخلاص وتحولت إلى مدرس في الإلقاء . كل [illegible]

المرات . كل حركة أديتها عشرات المرات . والأغانى رددتها ورددتها حتى تصورت فى النهاية أنى قد أتحول شخصياً إلى مطرب .

وكانت هناك ممثلات عشن فى مصر ولكنهن لا يقرأن ولا يكتبن العربية ، فكنت أكتب لهن الأدوار بالحروف اللاتينية .

كانت هذه عقبات (فنية) ، وكان التغلب عليها ممكناً مع الإخلاص والحب والجهد ، ولكن كانت هناك عقبات أخرى لم يكن التغلب عليها ممكناً أو سهلا على الأقل . كانت هناك أسئلة تدور فى المحيط العربى عن (حقيقة) ما أفعله . . عن هدفى من ذلك النشاط . . عنى شخصياً . . وكانت الأسئلة تصل إلى فلا أهتم بالرد عليها . كنت واثقاً من أن النتيجة سوف ترد بنفسها على كل ما يدور من أسئلة .

وكانت البروفات مزيجاً من الجهد والأمل والضحك أيضاً ، فما أكثر الطرائف التى كانت تحدث . من ذلك مثلا أن (فهمى) بعد بروفات شهر كامل اتضح عجزه الكامل عن حفظ جملة واحدة تزيد على أربع كلمات . مرة بعد مرة وبروفة بعد بروفة ولا فائدة . فى كل مرة يبدو وكأنه غريب عن كل ما يحدث فى البروفة . .

عرضت عليه أن يترك الدور مادام لا يستطيع أن يحفظه ، ولكنه تمسك بالدور بشكل مؤثر . فتركت له الدور وبحثت عن طريقة أعالج بها هذه المشكلة . .

ثم وجدت الطريقة . . كان دوره يتطلب منه أن يمسك مصحفا فى يده طول الوقت يفتحه من وقت لآخر ويقرأ فيه ، فكتبت له دوره فى نوتة صغيرة واستبدلتها بالمصحف على أن يقرأ دوره من النوتة باستمرار وكأنه يقرأ القرآن .

ومن الطرائف ما حدث للزميل (تونى شلهوب) . كان (تونى) شاباًّ مرحاً ضاحكاً ساخراً باستمرار . وقد تصورت فى البداية أنه من المستحيل أن أضمن استمرار وجود تونى فى الفرقة ، لأن تصرفاته لم تكن توحى بأى جدية . ولكنى اكتشفت فيه بعد ذلك رقة شعور جميلة وإخلاصاً وحباًّ للعمل والتعاون . كان قلباً مصرياًّ نقياًّ يرحب وتدمع عيناه لكل ما يذكره بمصر .

وكان قد هاجر إلى أستراليا وترك عائلته فى مصر على أن يشتغل ويدخر ما يضمن له أن يستقبل عائلته عند حضورها بشكل معقول . ولكنه لم ينجح فى شيء ، وكان ينتقل من عمل إلى عمل ومن منزل إلى منزل . كان طفلا كبيراً نقى القلب . وعندما انضم إلى (أضواء القاهرة) وجد فيها العائلة التى تركها فى مصر ، فأقبل عليها بكل وجدانه وشبابه وحنينه إلى مصر ، وعندما سمع أغانى (سيد درويش) لأول مرة سحرته وتغلغلت فى أعماقه فظل يرددها دون أن يستطيع أن يكف عن الغناء . كان يشكو لى من أنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الغناء . كان يغنى فى البيت ، فى الشارع ، فى العمل ، فى البروفة . وكان الناس ينظرون إليه وهو يردد هذه الأصوات (الغريبة) ، وكانت نظرات الناس تخجله ولكنه لا يستطيع أن يكف عن ترديد (الحلوة قامت تعجن فى البدرية . والديك بيدن كوكو فى الفجرية) .

طالما ضحكنا لهذه الظاهرة دون أن نتصور أنها سوف تنقلب إلى جد أو سوف تتسبب فى كارثة حتى جاء اليوم الذى كان يقف فيه فى عمله فى (مصانع فورد) وهو يغنى (زورونى كل سنة مرة) ، وإذا به يفاجأ برئيسه يسلمه خطاباً مغلقاً ، وفى الخطاب وجد قراراً بالفصل لأنه (يسبب

شوشرة وأصواتاً مزعجة) أثناء العمل .

خسر (تونى) وظيفته من أجل أغانى (سيد درويش) وبدأ يبحث عن وظيفة جديدة . كان يبحث بالنهار ويواصل الحضور إلى البروفات بالليل . والغريب أنه وهو يبحث عن الوظيفة الجديدة كان يغنى (سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة) .

هذا الحنين وهذا الحب وهذه الطاقة الشابة الرائعة ظهرت فى أجمل صورة فى كل ما قام به (تونى) فى فرقة أضواء القاهرة .

أما (إلياس شلهوب) ابن عمه فكان أكبر منى سنًّا وقد جعله ذلك أكبر أعضاء الفرقة سنًّا . وكان منظره — ولا يزال طبعاً — يوحى بالجدية والصرامة والخبرة . ولكن تصرفاته كانت تحير الألباب ! !

كان يتطوع لأداء أى عمل أطلبه من أحد . ثم لا يقوم بهذا العمل . ثم يعتذر ثم يتطوع من جديد ، ثم يعتذر ، وهكذا .

حيرنى أمره كثيراً ، ولكنى ضحكت فى النهاية عندما عرفت (سره) الحقيقى . . الخجل . كان إلياس خجولا جدًّا وكانت نيته طيبة دائماً فى كل ما كان يعرضه ثم كان خجله يغلبه فيعجز عن أدائه . وكان وراء هذا الخجل النية الطيبة والقلب الطيب والحب للفرقة ولباقى الزملاء ، فقنعت منه بأن يساعدنى — فى السر — وعهدت إليه بإدارة المسرح .

واقترب موعد الافتتاح . . ولم يكن فى نيتى أن أتزحزح عنه يوماً واحداً . وكان المتفق عليه أن نقدم المسرحية فى صالة (كنيسة سيدة لبنان) بعد تحويلها إلى مسرح لنوفر إيجار المسرح ، ولكننا فوجئنا بأحداث غريبة مؤلمة تحدث فى الكنيسة . كان (للأب بولس الخورى) رعية كبيرة



مسرحية « سيد درويش »

من الشبان والشابات يباشرهم ويرعاهم جميعاً كأنهم أولاده . . وكانت أولى المفاجآت المؤلمة وفاة شابة من هؤلاء فى حادث سيارة . وبعدها بأيام توفى شاب فى حادث سيارة . وبعده بأسبوع توفى شاب آخر فى حادث سيارة .

ملأ الحزن الكنيسة وقلب (الأب بولس الخورى) وقلوبنا جميعاً ، لم يعد فى إمكاننا أن نقيم مسرحاً فى الكنيسة الحزينة .

استأجرنا مسرحاً آخر فى (كنيسة جميع الأديان) التى يشرف عليها القس الأسترالى (نورمان لو) . . وهو رجل مهرج مهزار يرفض أن يناديه أحد بكلمة (أبى) ويقيم حفلات تعارف مستمرة بين أبناء الأوطان المختلفة .

كان (نورمان لو) رجلا غريباً لا يثير الاحترام ولا الحب ، ولكن مسرحه كان مسرحاً ممتازاً كاملا من جميع النواحى . وبعد أن استأجرناه منه لمدة أسبوع قمنا بالبروفات النهائية على هذا المسرح حتى يحفظ الممثلون الحركة على خشبة المسرح الجديد . .

وطبعنا التذاكر والبروجرامات وحددنا ثمن التذكرة (دولاراً) ، ولكننا لم نكتب السعر على التذكرة حتى لا تخضع للضرائب ، بل كتبنا على التذاكر (الدخول بالتبرع) لتفادى مشاكل لا نقدر عليها .

وبدأنا توزيع التذاكر قبل الافتتاح بأسبوع ، فأعطينا كل من نعرفه مجموعة من التذاكر لتوزيعها . وكانت النتيجة طيبة ، بل أكثر من طيبة مما كنا نتوقع .

ثم جاء أخيراً اليوم الموعود . يوم الافتتاح وذهبنا جميعاً إلى المسرح من الصباح الباكر وقدمنا بروفة كاملة بالملابس والديكورات والإكسسوار .

وبعد البروفة قسمت العمل الإدارى على (أصدقاء الفرقة) ، فخصصت أربعة منهم للوقوف فى الصالة وإرشاد المتفرجين إلى مقاعدهم ، ثم أوقفت على الباب الزميل (جورج فريد) ووضعت معه كمية إضافية من التذاكر فى حالة حضور أحد بدون تذاكر .

وفى المساء فاجأتنى الطبيعة مفاجأة لم أكن أتوقعها . انهمر المطر بشكل مخيف مصحوباً برعد وبرق ، وتحولت الشوارع إلى بحار هائجة تحت تأثير الطبيعة الغاضبة ، وضعت يدى على قلبي وقلت إنه من المستحيل أن يحضر أحد فى هذا الجو المخيف . ولكنى كنت واهماً جداً لحسن الحظ .

سرعان ما ملأت العربات كل الشوارع المؤدية إلى (كنيسة جميع

الأديان) ، وامتلأت الصالة وجاءنى جورج فريد يبكى غيظاً لأنه لا يستطيع صد هجوم الجمهور عليه بعد أن باع كل التذاكر التى أعطيته إياها . ما أبدع هذا ! ›

أعطيته كمية أخرى من التذاكر ، وأرسلت معه زميلين آخرين ليبحثا عن كراسى إضافية فى كل حجرات الكنيسة . ووضعنا الكراسى الزائدة فى الممرات الخالية حتى لم يعد فى الصالة موضع لقدم ، وتحولت الصالة الهادئة إلى صالة سينما فى أحد أحياء القاهرة الشعبية .

من أجهزة التسجيل تتصاعد الأغانى المصرية ، ومن البوفيه تتصاعد رائحة (الطعمية) فقد عهدت إلى (أم برناديت) بالإشراف على صنع الفول والطعمية وعمل سندوتشات وبيعها فى البوفيه استكمالا للجو الشعبي المصرى . وقد نجحت فكرة البوفيه نجاحاً بديعاً وبيع السندوتش الصغير الذى يحتوى على قرص طعمية واحد بمبلغ (٦٠ سنتاً) .

ووسط هذه الحرارة وهذا الحماس بدأنا الحفل ، فقدمنا تابلوه (الوطن العربى) وهو النشيد الذى وضعه (محمد عبد الوهاب) ، ثم تابلوه (عدوية) من ألحان (محمد الموجى) ، وتابلوه (الجارسونات) من ألحان خالد الذكر (سيد درويش) وبعد هذه التابلوهات الغنائية الراقصة قدمنا مسرحية (سيد درويش) .

وقدنجحنا نجاحاً سوف أظل إلى آخر عمرى أتذكره وأتدفأ به . . كان التصفيق يقاطعنا طول الوقت ، والضحك يتعالى أمام كل جملة مرحة ، وكأننا فى مسرح (نجيب الريحانى) ، والتجاوب معنا يشعرنا بأننا فى قلب القاهرة ، وملأت السعادة قلوبنا نحن الممثلين الجدد ، وكان من

المستحيل الفصل بين الجمهور والممثلين لشدة الاندماج والتجاوب .

ووسط هذا النجاح حدثت عدة طرائف . .

كنت قد عهدت إلى (إلياس شلهوب) بالميكروفون ليعلن عن كل شيء نقدمه ، واتفقت معه على أن يعلن عن وجود (سندوتشات الفول والطعمية) بعد الفصل الأول من المسرحية .

ونفذ (إلياس) الاتفاق ، وأعلن عن الفول والطعمية فى الموعد المحدد ، وذهب الجمهور إلى البوفيه فلم يجد شيئاً . . كانت رائحة الطعمية قد جذبت كل من شمها قبل أن يبدأ الحفل ، وكانت النتيجة أن كل ما بالبوفيه نفد قبل الإعلان عنه .

وأما (فهمى حافظ) فقد أثبتت مفاجآته الطريفة أنها أكبر من ذكائى . كنت أتصور أننى (ضمنته) بعد أن كتبت له دوره فى نوتة وسمحت له بأن (يقرأ) الدور من النوتة أثناء التمثيل .

ولكنه كان يفتح النوتة ويردد حواراً من الفصل الثانى فى حين أننا فى الفصل الأول ، أو يردد حواراً من الفصل الأول ونحن فى الفصل الرابع حتى بدا وكأنه يعيش فى مسرحية أخرى . وحتى كاد يحدث لنا بلبلة غريبة على المسرح لولا ما كان يسود العرض كله من روح طيبة .

ثم كان دوره يتطلب منه أن يحمل إبريقاً مليئاً بالشاى ويوزعه على الممثلين فى أحد المشاهد . وقد حرصت على أن أملأ له الإبريق بنفسى بين الكواليس حتى لا يحدث خطأ . ومع ذلك فقد ظهر على المسرح والإبريق خال تماماً من الشاى واضطر الممثلون أن (يتظاهروا) بأنهم يشربون الشاى . ولكن أين ذهب الشاى الذى ملأت به الإبريق ؟ شربه (فهمى)

أثناء فترات الاستراحة حتى يبقى متنبهاً ولا يكبس عليه النوم ! !

وجاء موقف بينه وبيني على المسرح أو بين (محمود مرسى) و(سيد درويش) وكان الموقف يقضى بأن يخرج فهمى من المسرح ويتركنى بمفردى على المسرح لكى أغنى (زورونى كل سنة مرة) ، ليس ذلك فقط بل إن خروجه كان إشارة لرجال الإضاءة بتخفيض الإضاءة على المسرح لإعطاء الجو المناسب للأغنية العاطفية .

وبدأ الموقف على ما يرام . وانتهى فهمى من دوره وقال : (تصبح على خير يا شيخ سيد) ولكنه لم يخرج من المسرح . وقف جامداً فى مكانه وقد نسى البروفات العديدة التى تدربنا فيها على هذا المشهد . همست له بالخروج . . اخرج يا فهمى . . اخرج . . ولم يخرج . تصلب فى مكانه ولم يتزحزح . واضطررت أن أهمس لرجال الإضاءة لتخفيض الإضاءة . وأكملت المشهد العاطفى ، فبكيت وغنيت وهو واقف بجانبى إلى آخر الفصل ، وبين الكواليس أمسكت بتلابيبه وسألته عن السر فى عدم خروجه . فأجاب فى براءة كاملة بأنه كان يعجب بأدائى للمشهد الأخير . ولذلك وقف بجانبى ليشاهدنى عن قرب ! !

كان لابد أن تحدث هذه الأخطاء الطريفة فى عمل هو الأول من نوعه فى أستراليا ومع أشخاص يقفون على المسرح للمرة الأولى فى حياتهم . وكان النجاح رائعاً . وفى الختام غنينا جميعاً النشيد المصرى الخالد (بلادى بلادى) فألهبنا حماس الجماهير التى وقفت تردد النشيد معنا والدموع تملأ عيونها . .

كانت ليلة رائعة ومجزية أيضاً ، وكان نجاح (أضواء القاهرة) شيئاً

انفجر كالقنبلة فى المحيط العربى فى (ملبورن) وكان ذلك النجاح هو الرد الحاسم الجميل على كل ما كان يدور من أسئلة عنى وعن فرقتى .

وأصبحنا (نجوماً) يستوقفنا من يعرفنا فى الشوارع ويعبر لنا عن إعجابه وتقديره لنشاطنا . واستمر ذلك الحلم الجميل أسبوعاً ، وتلقفنا آلاف التهانى من الكثيرين . وكان أجمل هذه التهانى وأشدها تأثيراً فى نفسى تهنئة (دكتور ناصح ميرزا) الذى اعتذر لى عن استخفافه السابق ، وقال إن ما حققته فى شهرين شىء لا يمكن وصفه إلا بأنه معجزة . وجدته (جنتلماناً) مصرًّا على إعطاء الفضل لأصحابه . بل إنه دعانى وفرقتى إلى أول اجتماع عقدته (الرابطة العربية) بعد ذلك وقدمنا إلى الجميع ذاكراً القصة بحذافيرها .

ثم انتهى الحلم ووزعت الأرباح على كل من ساهم فى نشاط الفرقة . وبدأت أستعد للمسرحية التالية (روض الفرج) .

أسندت دور البطلة إلى (برناديت) التى كانت قد نجحت نجاحاً ساحقاً فى (سيد درويش) واكتسبت شعبية كبيرة ، ولكن ظهر أن هذا النجاح كان أكبر من سنها واحتمالها فقد ملأها الغرور . وبدأت تعاملنا (نحن) على أنها نجمة كبيرة . بدأت تتخلف عن البروفات ، وإذا حضرت بروفة تطلب أن تؤدى دورها بسرعة . ثم تخرج من البروفة .

كلام فارغ طبعاً . هذا شىء يهدد كيان الفرقة ، وإذا تركت لها الحبل على الغارب فإن ذلك سوف يشجع غيرها على الاستهتار بالمواعيد والبروفات . ومع ذلك ماذا أستطيع أن أفعل ؟ ليس من السهل أن أجد فى يوم وليلة ممثلة أخرى لها مواهب (برناديت) وجاذبيتها المسرحية . أرسلت لها (تونى وإلياس) وكانا قد أصبحا جزءاً عزيزاً من نفسى ومحلا لثقتى الكاملة . وقد نصحاها

الاثنان بأن تواصل العمل فى جدية واهتمام فأصغت إليهما ثم وعدتهما بالانتظام . ورغم ذلك تخلفت عن البروفة التالية .

وجدتنى فى موقف لا يحتمل التردد فأعلنت الاستغناء عن (برناديت مهران) بطلة الفرقة وأكملت البروفة بدونها لحين العثور على ممثلة أخرى .

وبعد البروفة سألنى (تونى وإلياس) عما أنوى أن أفعل بعد خروج (برناديت) من الفرقة ؟ فأجبتهما بأن الله وحده يعلم . ولكن الفرقة سوف تستمر وسوف نعثر على بطلة أخرى . .

واستمرت البروفات وذلك السؤال يلح على فى كل لحظة . أين أجد البطلة التى تقوم ببطولة مسرحية (روض الفرج) ؟



ضابط بريد

مع الأيام الأولى لتكوين (فرقة أضواء القاهرة) تسلمت وظيفتى الجديدة . . .

أصبحت (ضابط بريد) ، ويجب أن يكون مفهوماً هنا أن كلمة (ضابط) لا تعنى ما تعنيه عندنا فما هى إلا الترجمة الحرفية لكلمة (مكتبى) أو (متعلق بالمكتب) فهذه الكلمة الجميلة (ضابط) يضعها الأستراليون بجانب كل عمل إدارى أو مكتبى .

ووجدت الوظيفة الجديدة تتصف بصفات كثيرة طيبة ، أولى هذه الصفات أن العمل فيها كان فى شارع من شوارع المدينة وليس فى إحدى الضواحى مثل (مخازن ج . ج كولز) وهذه الصفة جعلت الوظيفة أكثر إنسانية وجعلتنى أطمئن إليها . .

الصفة الثانية أن العمل مسائى (من الثانية ظهراً إلى العاشرة مساء) وهو موعد معقول يمنحنى النوم بارتياح والحياة بارتياح والتحرك بحرية والبحث عن وظيفة مناسبة فى فترة الصباح . .

ثم كانت هذه الوظيفة حكومية فلم أكن عاملا هذه المرة . ارتقيت خطوة . لم أصر (ضابطاً) طبعاً ولكنى صرت شيئاً مثل (الأفندى) ، هذا



المنزل رقم ٤٠٥ شارع لا يجون

ما شعرت به فى خطواتى الأولى فى مصلحة البريد .

ومع ذلك لم أكن مخلصاً تماماً لهذه الوظيفة . لم تكن هى الوظيفة المثالية التى أحلم بأن أستقر فيها ، فإن مرتبها لم يكن يزيد كثيراً على مرتبى فى المخازن. كانت بالنسبة لى وظيفة مؤقتة . مرحلة انتقال . عمل خفيف أؤديه حتى أجد الوظيفة التى تناسبنى حقًّا .

فى اليوم الأول ذهبت فى الموعد المحدد ، واتضح لى أننى لم أعين بمفردى بل إننى واحد من دفعة كاملة (٥٠) موظفاً جديداً . واستقبلنا موظف مهذب وقال لنا أول جملة إنسانية سمعتها فى مجال العمل فى أستراليا ! قال : تفضلوا



فى حدائق ملبورن

بالجلوس . . . جلست وأنا أدعو الله أن يكون (الجلوس) شيئاً طبيعيًّا فى هذا المكان بعد أن (وقفت) شهرين كاملين فى (مخازن ج . ج كولز) .

وبدأنا ذلك الموظف ببضعة توجيهات خاصة بمواعيد الحضور والانصراف ونظام العمل ، ثم طلب منا أن نقسم يمين الولاء لصاحبة الجلالة ملكة إنجلترا أقسمنا وتعهدنا عهداً مقدساً - بألا نفشي أسرار العمل . وبذلك انتهت مهمة هذا الموظف معنا . ثم حضر موظف آخر ليلقى علينا محاضرة عن أهمية البريد فى حياة الأمم والأفراد . .

استغرقت المحاضرة ساعتين ، والواقع أن المحاضر قال كلاماً عميقاً مؤثراً

ما كان أجدرنا أن نتأثر به وأن نحس بخطورة ما نحن مقدمون عليه ، لولا أن المحاضرة لقيت منا آذاناً لاهية ، كما بدا واضحاً فى وجوه الزملاء .

وبانتهاء المحاضرة صرنا (ضباطاً) فى مصلحة البريد فى حكومة أستراليا . وتركنا المحاضر إلى موظف ثالث قادنا فى رحلة استطلاعية لكى نلم بالعمليات العديدة المعقدة التى يمر بها الخطاب حتى يصل إلى صاحبه .

من حجرة إلى حجرة ، ومن ماكينة إلى أخرى ، وقائدنا يشرح لنا بدقة وسرعة ما نراه أمامنا حتى وصلنا إلى صالة المبتدئين . . وجدنا صالة لا أول لها ولا آخر كأنها ميدان عام ، مليئة بالترابيزات الطويلة التى يجلس حولها مئات الموظفين وهم يعملون ويضحكون ويصدرون ضجة تصم الآذان . . وكان هذا المنظر وحده كفيلا بنزع أى شك من أننا فى مكان حكومى حقًّا .

أجلسنا رئيسنا الجديد حول ترابيزة خالية ، فى وسطها مجرى مرتفع قليلا متصل فى بدايته بفوهة دولاب كبير ، ثم أخبرنا الرئيس أن الخطابات سوف تخرج من فوهة الدولاب وتمر فى المجرى ، وعلينا أن نفرزها حسب الأحجام . فنضع المستطيل مع المستطيل والمربع مع المربع وهكذا . .

عمل سهل . وبدأت الخطابات تنهمر علينا . ونحن نتخاطفها ونرتبها فى جهد هو باللعب أشبه . .

مضى الوقت فى هذا التهريج ، وجاء وقت تناول الشاى ، لم يكن بالمجان هنا ، كان سعر الفنجان (٢ سنت) ومعه بسكويت متواضع القطعة منه سعرها (سنت واحد) وبعده جاءت (ساعة) لتناول العشاء . ساعة كاملة وليس نصف ساعة كما كان النظام فى المخازن ، ولاحظت أن الفوضى تسود كل شىء ، وأن الموظفين يهربون بالساعات دون أن يتمكن أحد من مراقبتهم ،

حتى لقد تعجبت كيف تصل الخطابات فى موعدها بالرغم من هذه الفوضى .
ثم جاءت فترة الشاى الثانية وبعدها مضى الوقت حتى شارفت الساعة التاسعة مساء وإذا بنا ننتقل إلى موقع آخر أمام آلات تخرج منها الخطابات بسرعة الصوت ، وكان علينا أن نرتب هذه الخطابات لا حسب الحجم بل حسب العنوان المتجه إليه الخطاب . .

كان عملا شاقًّا ، وكانت الخطابات تتكاثر بسرعة مخيفة ، وكان علينا أن نقفز أمام الآلة كالمجانين حتى نتمكن من التوافق مع سرعة لقطها للخطابات .

ساعة واحدة أمام هذه الآله الجهنمية ولكنها كانت تعادل تعب اليوم كله واتضح بعد ذلك أن العمل أمام هذه الآلة يومى وأنه لا مهرب منها ، فكانت هذه هى الساعة التى نخشاها جميعاً . .

ولكنى تعودت فى الأيام التالية العمل بسرعة أمام هذه الآلة والعمل ببطء وعبث على الترابيزة المستطيلة . وكانت تمر أمامى آلاف الخطابات الذاهبة إلى كل أركان الدنيا .

تعودت كل شىء وأصبح بإمكانى أن أترك العمل ساعة على الأقل كل يوم دون أن يشعربى أحد ، أو أن أتمارض فأذهب إلى عيادة الطبيب الذى وجدته إنجليزياً عاش فى مصر فترة طويلة ، فكان يحلو له دائماً أن يحدثنى عنها وعن ذكرياته فيها . وكونت علاقات كثيرة كان أهمها صداقة مع فنان شاب من (يوغوسلافيا) وكان ساخطاً على وجوده فى أستراليا ويحلم باليوم الذى يعود فيه إلى وطنه . كان فناناً رقيق الحس والشعور ، وكان وجهه صورة طبق الأصل من تمثال (دافيد) لميكل أنجلو حتى إننى كنت أناديه (دافيد) بعد

أن نسيت اسمه الأصلي .

وتصادفت مع شابين من اليونان لم يكونا يعرفان كلمة إنجليزية واحدة . وقد لجآ إليّ لتوضيح كل شيء لهما ، وكانت أتفاهم معهما بالإشارة ، وقد أحببتهما لبساطتهما . ولم أغضب عندما عجزا عن حفظ اسمي ، وفضلا أن ينادياني باسم (صديق) ، ولاحظت تشابها كبيرا بين طباعهما وطباعنا .

ولاحظت عموماً أن المستوى الاجتماعي في مصلحة البريد أرقى كثيرا منه في مخازن ج . ج كولز . وقد فهمت فيما بعد أن زملائي في المخازن كانوا حثالة الأمم ممن يعجزون عن أي شيء إلا العمل اليدوي البحت . أما في مصلحة البريد فالمفروض في الموجودين أنهم متعلمون .

وجاءت نهاية الأسبوع وتسلمت أول مرتب لي من حكومة أستراليا . ثم تلاه أسبوع آخر . ولم يكن في نيتي (الاستقرار) في مصلحة البريد ، ولكني استنمت إلى ما فيها من راحة وفوضى وتهريج ومواعيد مريحة . فتكاسلت عن البحث عن وظيفة أخرى لولا صديقتي المخلصة (مسز نينا كروناس) صاحبة المنزل الذي كنت أسكن فيه .

كانت (نينا كروناس) امرأة بيضاء مديدة القامة ذات ملامح متناسقة واضحة ، وكان كل ما فيها يعجبني ، إذ كانت ذكية مرحة ذات طبيعة عملية ، وكانت تتحمس لكفاحي وتقدمي كما تتحمس لحياتها الشخصية . كانت تتمتع بقلب كبير في الواقع . وقد عرفت منها أنها من (ليتوانيا) وأنها عاشت الحرب العالمية الثانية ورأت بعينها أهوال الحرب وآلاف الجثث والمنازل المحترقة وعاصرت الدمار والخراب . ثم هربت إلى أستراليا وهي لا تعرف كلمة واحدة من الإنجليزية واشتغلت عاملة صغيرة ،



مع « بادى » فى شوارع ملبورن

وحفرت طريقها بأظافرها . وانتقلت من مصنع إلى مصنع وهى تتعلم اللغة والحياة فى أستراليا حتى قابلت الرجل الذى تزوجته ، وهو أيضاً من (ليتوانيا) ، ثم اشترت المنزل الذى سكنت فيه . وبعد سنوات مات زوجها وعاشت وحدها من دخل المنزل ومن المعاش الذى تحصل عليه من الحكومة (١٦ دولاراً أسبوعيًّا) .

كانت تنظف المنزل يوميًّا بمفردها ، ثم تخرج إلى السوق لتشترى طلباتها اليومية . وبعد ذلك تقصد إلى محل البقال المجاور للمنزل لتشتغل فيه ساعة أوساعتين حسب التساهيل . . وكانت تتسلم رسائلى وترد على مكالماتى التليفونية فى غيابى ، وكانت توجهنى باستمرار إلى ما يجب وما لا يجب عمله فى أستراليا ، وهى التى كانت تحثنى دائماً وما أسألها عن مكان حتى تحضر خريطة (ملبورن) وتبحث بنفسها عن أسهل مواصلة لذلك المكان .

كنت أجد عندها دائماً الصداقة الخالصة ، وأجد فى منزلها النظافة والراحة والاطمئنان والدفء . بل إننى كنت أجد فى المنزل أيضاً ميزة هامة لا تتوفر فى معظم منازل (ملبورن) القديمة . . هذه الميزة هى وجود (الحمام) داخل المنزل وليس خارجه . فإن (المجارى) نظام حديث فى (ملبورن) ، ولذلك فإن جميع المنازل التى بنيت قبل دخول المجارى قد عملت حساب ذلك وجعلت الحمام فى الحديقة الخاصة بالمنزل وليس بالمنزل نفسه .

شىء مزعج جدًّا أن يضطر الإنسان إلى الخروج بالليل أوفى الصباح الباكر من الفراش الدافئ إلى الحديقة الباردة حيث يصفعه الهواء القارس



فى حديقة فيتزروى

فى ذهابه وإيابه .

كنت سعيداً بذلك المنزل متفرغًا إلى الدخان فى مجال الفن مجال العمل . ومع ذلك كنت معرضا لأن أترك هذا المنزل بعد سكنى فيه بفترة قصيرة وذلك بسبب صديقتى الأولى فى أستراليا (بادى) .

وقد عرفت بادى فى أول منزل سكنت فيه فى تلك الأيام الصعبة الأولى التى كنت أجد فيها كل شىء غريبا ومعاديا . وكنت أشكو من البرد الذى فاجأنى وأذهلنى ولم أعرف طريقة أتقى بها منه . ولم تذكر لى صاحبة المنزل (مسز كيرلى) شيئا عن باقى سكان المنزل فلم أعرف شيئا . ولكنى كنت ألمح فتاة حسناء تروح وتجىء فى المنزل وكنت أظن أنها ابنة (مسز كيرلى) .

ثم فوجئت ذات يوم بهذه الفتاة الحسناء تطرق باب حجرتى وتستأذن فى الدخول . أذنت لها وأنا فى غاية الدهشة لجرأتها . ولكنها عرفتنى بنفسها فى لطف وقالت : إنها عرفت من (مسز كيرلى) أننى أشكو من البرد ، وأنها لذلك أحضرت (قربة) صغيرة لكى أملأها بالماء الساخن وأضعها بجانبى وأنا نائم . كانت لفتة إنسانية كريمة من هذه الحسناء الغريبة ، وكانت بداية الصداقة بيننا . وتعودت بعد ذلك أن تحضر إلى حجرتى كل يوم بمجرد عودتى من العمل وتلازمنى حتى وقت متأخر من الليل . وعرفت أنها (أيرلندية) الأصل ، ولكنها حصلت على الجنسية الأسترالية ، وأنها تعمل فى شركة تاكسيات فهى تجلس بجوار التليفون لتتلقى طلبات التاكسيات ، أى طلبات الذين يريدون تاكسيات .

وبعد أيام التعارف الأولى بدأت (بادى) تذكر لى قصصا غريبة عن

رجال يضايقونها وتستفزنى للوقوف أمام هؤلاء الرجال . وإذا خرجنا معا كانت تتعمد أن تجعلنى أنفق كل ما قد يكون معى . وبدأت أرى وراء جمالها ورقتها جشعاً ورغبة فى التسلط علىّ ، ووجدتها لا تترك لى دقيقة فراغ واحدة بل تأخذ وقتى كله ، فتركت منزل (مسز كيرلى) إلى منزل آخر صاحبته عجوز شمطاء مجنونة سليطة اللسان ، والمنزل نفسه قذر مهدم ، ونافذة حجرتى مكسورة ، كان الهواء الثلجى يدخلها كل ليلة دون استئذان . ولكن (بادى) تصورت أننى انتقلت لأحتفظ بصداقتنا بعيداً عن أعين الرقباء ، فما كنت أصل إلى المنزل يوماً إلا وأجدها فى انتظارى . .

كنت فى هذه الأيام أقرأ الرموز الأولى لأستراليا ، وأكافح باستماتة فى سبيل ضمان حياتى يوماً بيوم ، فوجدت (بادى) عبئاً ثقيلاً . ولم أرض أن أتحول معها إلى المهاجر المجنون الذى يصرف ما فى الجيب ليأتيه ما فى الغيب . خصوصاً بعد أن فوجئت بها يوماً تطلب منى (٩٠ دولاراً) قرضاً . غادرت ذلك المنزل إلى منزل (مسز نينا كروناس) .

وتبعتنى (بادى) أيضاً ، تلاحقنى بالزيارات كل يوم ، ولا تترك لى ساعة واحدة أفرغ فيها إلى نفسى . وكنت ألمح الغضب المهذب فى عينى (مسز كروناس) حتى حدث مرة أن حضرت (بادى) إلى البيت فى أثناء غيابى . وأخبرتها « مسز كروناس » بأننى غير موجود . وعند ذلك طلبت أن تنتظرنى فى حجرتى حتى أعود . فرفضت (مسز كروناس) . وعند ذلك هددتها « بادى » أن تدخل بقوة البوليس ! !

وقامت مشادة بين الاثنتين . وفى الصباح أخبرتنى (مسز كروناس » بما حدث وخيرتنى بين البقاء فى المنزل وبين استقبال « بادى » .

فاخترت المنزل وراحة البال واختفت « بادى » من حياتى .

بقيت فى مصلحة البريد شهراً كنت خلاله سعيداً بكل شىء ، راضياً عن الدنيا وما فيها ، وتعودت أن أخرج من المنزل قبل موعد العمل بساعات لأستكشف مدينة « ملبورن » التى لم تساعدنى الظروف السابقة على معرفتها .

مشيت فى الشوارع التى كنت أخشى قديماً أن أفقد نفسى بعد كل خطوة فيها .

مشيت الآن باطمئنان العارف الواثق بعد أن حفظت جغرافية « ملبورن » وأعجبنى النظام الهندسى العجيب الذى خططت الشوارع على أساسه . . فالمدينة كلها مقسمة إلى شوارع طولية وشوارع عرضية ، لذلك فإنه من أسهل الأمور أن يجد الإنسان العنوان الذى يبحث عنه طالما كان يعرف أنه يقع عند ناصية كذا وكذا . . ثم رأيت فى الشوارع العرضية ظاهرة غريبة لم أرها من قبل ، وهى أن كل شارع هو فى الحقيقة شارعان متوازيان . واحد واسع والثانى ضيق ، أو أضيق . وكلاهما له نفس الاسم باستثناء كلمة الكبير والصغير مثل شارع كولنز الصغير وشارع كولنز الكبير .

كأن الشارع الصغير « مقدمة » للكبير . .

زرت المتاحف والمعارض والحدائق العامة الرائعة التى تمتد وتتسع كالغابات وتسرى فى أوصال المدينة كالشرايين . ورأيت فى المعارض لوحات « أصلية » للفنانين العظام « فان جوخ – جوجان – سيزان . . . إلخ . . » .

وفى متحف الحضارة رأيت نماذج مصغرة لكل شىء فى قارة أستراليا . رأيت طيوراً وحيوانات وحشرات لا توجد فى أى مكان فى الدنيا .

وطفت بالمحلات التجارية التى يدور رأس الإنسان فيها لكثرة المعروضات وروعتها ، ورأيت محلات يكاد الواحد منها أن يكون مدينة مستقلة مثل محلات « ماير » التى تشغل مساحات هائلة على امتداد ثلاثة شوارع ، والتى يشاع عنها أن المسئولين فيها يتحدون أى زبون أن يدخلها ويخرج بدون شراء شىء أو أن يطلب شيئاً لا يجده ، فالمحلات تعرض بجوار منتجات أستراليا منتجات من جميع أقطار العالم . . ويستطيع الزبون أن يشترى كل شىء . . من (الإبرة) إلى « الصاروخ » بالتقسيط أو بالدفع الفورى . وإمعاناً فى اجتذاب الزبائن يعمد المسئولون فى « ماير » إلى اختيار سلعة كل يوم يقدمونها بنصف سعرها الأصلى . هذا الاختيار يكون دائماً مفاجأة ، فلا يستطيع أحد أن يعرف هذه السلعة مقدماً ، ولذلك فإن الزبائن يضطرون إلى الذهاب إلى « ماير » كل يوم للبحث عن سلعة اليوم الرخيصة . .

وبلغت أرباح « ماير » فى تلك السنة « ١٧ مليون دولار » وأصدر المحل كتالوجاً ذكر فيه قصة « ماير » الأب الذى دخل أستراليا وهو لا يملك إلا قميصه .

رأيت « ملبورن » فى صورة زاهية مشرقة فأحببتها ، ورأيت الخنافس يسيرون فى الشوارع فى حرية وجدية ، ورأيت أجمل بنات الدنيا وهن يلبسن أغرب التقاليع ويسرن فى الشوارع حافيات كنوع من الابتكار .

كنت أتمتع بهذه الراحة النفسية الطارئة وأواصل على مهل البحث

عن وظيفة ، حتى قرأت يوماً إعلاناً عن طلب رسام فى شركة إعلانات . كتبت طلباً للوظيفة وأرسلته ، وسرعان ما جاءنى الرد يحدد لى موعداً للمقابلة الشخصية .

كانت المقابلة الشخصية هذه المرة فى (مكتب استخدام) مع رجل عملى مرح لم يتركنى أتحدث طويلاً ، بل ألقى نظرة سريعة على رسومى وأخبرنى بأنه يعتقد أننى سوف أفوز بالوظيفة ، ثم أعطانى خطاباً للشركة وكتب لى العنوان ثم أراد أن يسهل لى المسألة فوصف طريقة الوصول ، فقال إن علىّ أن أركب تراماً من منزلى إلى محطة القطار ، ثم أركب القطار أربع محطات ، وبعد ذلك أركب الأتوبيس حتى آخره وفى النهاية أمشى مسافة (٢ كيلو) . .

وفى اليوم التالى نفذت نصيحته بالحرف ، وركبت الترام والقطار والأتوبيس ، ثم بدأت رحلة الـ (٢ كيلو) .

كان الطريق واسعاً ، وكانت السيارات تعبره فى ثمانية اتجاهات ، ولا يوجد رصيف أسير بجانبه ، فسرت وسط العربات أحتمى بالله من سيلها الذى لا ينتهى . قطعت نصف المسافة تقريباً وما أدرى إلا والمطر ينهمر مرة واحدة . وفى ثوان كانت ثيابى تقطر ماء . كنت الإنسان الوحيد الذى يمشى بين العربات ، وكان من الجنون أن أواصل السير ، فكيف أصل إلى الشركة التى أرجو أن أعمل بها لأول مرة وأنا أبدو كغريق خرج من الماء لتوه .

عدت أدراجى جرياً ووصلت إلى البيت وأنا أرتجف من البرد . كنت ساخطاً على هذه الوظيفة مندهشاً أسائل نفسى لماذا لا توجد الوظائف

الممتازة إلا فى الأماكن النائية ! !

أما صاحب مكتب الاستخدام الذى أرسلنى فقد حملت له فى نفسى موجدة كبيرة لكونه السبب فى هذه البهدلة .

ومر اليوم واعتقدت أن الموضوع قد انتهى ، وأنهم لا شك قد اختاروا أحداً غيرى ، وإذا بى أفاجأ بتلغراف من مكتب الاستخدام يطلب ذهابى فوراً .

ما الذى يريده ذلك المجنون ؟ ذهبت إليه فوجدته – لدهشتى – غاضباً يسألنى لماذا لم أذهب إلى الشركة ؟

قصصت له ما حدث ، ولكنه لم يتأثر ، بل ظل غاضباً وقال : كان يجب أن تذهب بأى شكل ، لأن الشركة متمسكة بك .

تحملت غضبه أمام هذا الكلام الطيب ، ووعدته بالذهاب فى اليوم التالى . وفى المنزل حكيت القصة كلها (لمسز كروناس) فعمدت إلى خريطة (ملبورن) ، وفرشتها على الأرض ، وسرعان ما اكتشفت أن هناك أتوبيساً يبدأ من باب المنزل إلى باب الشركة . وكان غباء إذن من الرجل أن يصف لى هذه الوصفة الحمقاء . .

وفى الصباح التالى ذهبت مبكراً ووصلت قبل أن يصل باقى الموظفين واستقبلتنى موظفة الاستعلامات الشابة ورجتنى أن أنتظر حتى يحضر موظف شئون العاملين . . وبعد دقائق أخبرتنى أن ذلك الموظف لم يحضر بعد ، ولكن وكيل الشركة قد حضر وأنه يحب أن يقابلنى .

كان الوكيل رجلاً فى الحلقة السادسة بشوشاً ضاحكاً بسيطاً أجش الصوت عاليه كأنه ابن بلد من الجمالية . وقد أرانى الأعمال المطلوب منى

رسمها فوجدتها أشياء بسيطة أستطيع أداءها وأنا مغمض العينين . .

ملأتنى رؤية الرسوم التافهة ثقة فى نفسى ، فتحادثت فى وضوح ومرح وذكاء حتى خلبت لب ذلك الوكيل الطيب القلب الذى كان يقهقه فى صفاء أمام كل ما أقول .

ثم بدا لنا أن كل ما قد يقال قد قيل ، وارتاح كلانا إلى الآخر ، وعند ذلك بدأ يتفق معى على المرتب والواجبات والمواعيد .

المرتب (٨٠ دولاراً) فى الأسبوع . . والأيام أربعة أيام ونصف يوم فى الأسبوع . والمواعيد من التاسعة صباحاً لا الثامنة إلى الرابعة بعد الظهر .

آه . . كل هذا رائع . وهذا كله لقاء القيام بهذه الرسوم الهايفة . إن قلبى يزغرد فرحاً وعسى يارب ألا تضيع هذه الفرحة .

وعند ذلك جاء موظف شئون العاملين ! ! !

رجل ضئيل ، مشوه الوجه والجسم ، لامع العينين كالمجانين ، ومظهره كله يوحى بأنه نشال أومن مدمنى المخدرات .

عند دخوله كنا نضحك ، وقد فاجأه ضحكنا فنظر إلينا فى هلع وكأنه يقول : أرجو أن أكون قد جئت فى الوقت المناسب قبل أن تقع الفأس فى الرأس . أخبره الوكيل بأنه قد وافق على تعيينى وأنه اتفق معى على كل شيء . . فاصفر وجهه وتنحنح نحنحة مصطنعة كأنما يكلم الوكيل بلغة سرية ، ثم بدأ يتحدث معى وهو يحاول أن يخترق وجهى وجسمى بنظراته الثاقبة منقباً عما لا أدرى . وكان يتحرك فى نفس الوقت فى عصبية خلف الوكيل كأنه فأر يتصيد فرصة ليخطف شيئاً . .

أجبت عن أسئلته بوضوح ودقة واحتقار خصصته به ، ولاحظت أنه غير مهتم بإجاباتى بقدر اهتمامه بتأملى وتفحصى ، حتى لقد توقعت فى كل لحظة أن يطلب منى أن أخلع ثيابى ثم لاحظت أيضاً والحزن يتسرب إلى قلبى أن وجوده – وحركاته – قد أثرا أثراً سيئاً فى نفس الوكيل الذى بدا متحرجاً وكأنه يحاول أن يسحب موافقته السابقة أو يؤجلها ، وشعرت بأن الفأر اللعين يحاول قصارى جهده أن يجردنى من كل ما كسبته فى نفس الوكيل قبل حضوره .

كان ذلك كله تياراً باطنيًّا ، أما فى الظاهر فقد كنا ثلاثتنا نتحدث فى لباقة وديبلوماسية . انتهى اللقاء . وبدلاً من أن أخرج باتفاق على بدء العمل خرجت بوعد على أن يتصلوا بى تليفونيًّا لإبلاغى النتيجة النهائية . وفى المساء بلغتنى النتيجة النهائية . الاعتذار المهذب والتمنيات الطيبة بمستقبل زاهر . .

نجح الفأر فى إقصائى عن هذه الوظيفة الرائعة .

كانت صدمة أثرت فى نفسى ، وزاد فى إحساسى بها نظرة الأسى العميقة التى رأيتها فى عينى صديقتى الطيبة (مسز كروناس) . كان إخفاقى هنا إخفاقاً لاهتمامها ولنياتها الطيبة .

ثم جاء الغد ، ومع البحث الجديد نسينا هذه القصة وآلامها . قرأت إعلاناً يطلب موظفين (مثقفين) دون أن يحدد طبيعة العمل . . ولكن الذى اجتذب اهتمامى فى الإعلان هو عنوان الشركة . كان نفس الشارع الذى أسكن فيه . هل هذا ممكن ؟ . أن أشتغل فى نفس الشارع الذى أسكن فيه ؟ .

ذهبت إلى الشركة ، وقابلت المسئول ، ووجدته رجلاً طويلاً نحيلاً أسمر البشرة والشعر يلبس نظارة سوداء .

سألني عن مؤهلاتي وخبراتي فأجبته ، ثم عرفت منه طبيعة العمل . (مندوب بيع) فهذه الشركة تنتج ماكينات لصناعة الحلوى ، وتريد تسويقها ، وواجباتي هي أن أمر بالبيوت لأبيع هذه الماكينات لربات البيوت في مقابل مرتب ثابت وعمولة مجزية لقاء كل ماكينة أنجح في بيعها .

كانت وظيفة سخيفة ، من المؤكد أنه لا مستقبل لها ولا حاضر أيضاً . ومع ذلك لا أدري لم تمسكت بكلامه . لعل السبب هو وجود الشركة أمام المنزل . لعله التعب من المشاوير البعيدة هو الذي جعلني أتمسك بهذه الوظيفة المضحكة ، وفي نهاية اللقاء فاجأني الرجل بأن تحدث معي بالعربية . . إنه لبناني ولكنه ولد في أستراليا .

كانت هذه المفاجأة الطريفة هي الكلمة الأخيرة ، فوافقت على الوظيفة وتعهدت بأن أبدأ من الغد على أن أستقيل من مصلحة البريد بعد أسبوع .

وفي اليوم التالي استيقظت متأخراً فغسلت وجهي بماء ساخن وخرجت جرياً إلى الشارع ثم إلى الشركة . وهناك قابلني الصديق اللبناني . . ووجدت عنده مجموعة من الشبان وهو يشرح لهم طريقة استعمال ماكينة صنع الحلوى . . كان هؤلاء الشبان هم زملائي الجدد . وقفت معهم أستمع إلى شرحه العملي وراقبته وهو يضع السكر والقشدة والبيض وجوز الهند وشراب الفراولة في الماكينة . ثم وهو يخرج كل ذلك من الماكينة قطعاً من الحلوى

اللذيذة . ذقناها جميعاً وأبدينا إعجابنا بها . وعند ذلك طلب منا أن نستعمل الماكينة واحداً واحداً حتى نتمرن عليها .

وقفت فى انتظار دورى ، وعند ذلك فوجئت بالدموع تنهمر من عينى . . دموع ؟ لا . . كان سيلاً منهمراً من الماء يخرج من عينى ويبلل وجهى كله . . جففت عينى بسرعة ، وسرعان ما عادت الدموع تخرج من عينى .

ملأنى الحرج والدهشة وأنا لا أعرف سر هذه الدموع ، فلم أكن حزيناً بصفة خاصة ولا سعيداً ولا فى أى حالة عاطفية خاصة ، ومع ذلك فإن الدموع مستمرة فى الخروج من عينى ، وعند ذلك استنتجت أننى أصبت ببرد فى عينى عندما غسلت وجهى بالماء الساخن وخرجت بسرعة إلى الشارع .

عرفت السبب إذن ، ولكن الدموع مستمرة وأنا مستمر فى تجفيفها ، وبدأ الموجودون يلاحظون دموعى القهرية ويندهشون . ومر الوقت وأنا أرجو أن تكف الدموع عن النزول ، ولكنها زادت حتى بللت وجهى وصدرى وثيابى فلم يعد فى إمكانى أن أبقى بهذا المظهر الحزين ، فاستأذنت من صديقى اللبنانى وخرجت وأنا أمسح دموعى وأضحك من أعماقى لهذا النحس الغريب الذى يلازمنى . .

ولكنى لم أكن آسفاً على هذه الوظيفة ، فقد كانت المسألة كلها تهوراً منى من البداية ، ولم أنو العودة إليها وغسلت الدموع هذه الحماقة العارضة .

ثم فوجئت فى مصلحة البريد مفاجأة جعلتنى أقرر أن أبحث عن وظيفة بأسرع ما يمكن . . عرفت أن العمل الذى نقوم به هو (فترة تمرين) ، وبعدها علينا أن نؤدى امتحاناً فى أوراق يعطوننا إياها لنستظهرها فى يوم

ثم نؤدي الامتحان فيما هو فيها .

أما محتوى الأوراق فهو آلاف من أسماء الشوارع ، وأمام كل اسم رمز بريدى يشير إلى الناحية التى يقع فيها هذا الشارع .

الامتحان شفوى خاطف ، والذى ينجح فيه يبقى فى العمل لحين امتحان آخر (أكثر صعوبة) ، أما الذى لا ينجح فإنه يفصل .

كنت واثقاً أننى لن أستطيع أن أحفظ هذه الآلاف من الأسماء ، ، ولم أكن أريد أن أفصل ، لا لأن الفصل يمكن أن يسيء إلى مستقبلى فى أستراليا . وإنما لأنه جدير بأن يؤثر تأثيراً سيئاً فى نفسيتى . أنا أعرف نفسى جيداً .

يجب إذن أن أستقيل قبل أن أفصل . قبل أن أمتحن . أى يجب أن أجد وظيفة أخرى فى يوم وليلة .

شمرت عن ساعد الجد ، ولم أنتظر إعلانات الجرائد ، بل فتحت دفتر التليفون ونقلت منه عناوين كل شركات الإعلان وأرسلت خطابات لها جميعها . ثم جاءنى أول خطاب فحملت رسومى وذهبت إلى الشركة ، ومررت بقسم الرسم فرأيت الرسامين يرسمون خرائط جغرافية . هذا شيء بعيد جداً عن مجال خبرتى ، ولكنى مستعد لأن أتعلم أى شيء ووورائى شبح الفصل الرهيب قابلت الموظف المسئول الذى أبدى تقديره الشديد لرسومى ولكنه اعتذر بأن العمل فى شركته هو رسم خرائط جغرافية . وهو شيء أقل من مواهبى بكثير .

كان اعتذاراً رقيقاً ، فتنهدت وهممت بالانصراف ، ولكنى وجدته يقول فى إخلاص وتأثر : ما الذى يستطيع الإنسان أن يفعله مع فنان موهوب

مثالك ؟ أجبته ضاحكاً : يطلق عليه الرصاص . ولكنه قال فى جدية إنه يعرف صديقاً له شركة إعلان وإنه يعتقد أن مواهبي تصلح لهذه الشركة ، فهل أقبل أن يحول طلبي إليها ؟ .

لم أجد ما أخسره فوافقت ، وعند ذلك أعطانى اسم صديقه (بيتر فاندر هوف) ورقم تليفونه وطلب منى أن أتصل به بعد ساعتين لأعرف النتيجة .

خرجت وأنا أتصور كلامه مجاملة غير جادة ، ونقلت القصة ورأيى فيها إلى (مسز كروناس) التى عارضتنى وقالت إننى مخطئ فى تصورى ، وإنها تعرف أن الناس فى أستراليا لا يقولون إلا ما يعنون . وإنه لذلك يجب أن أتصل بالشركة حسب الاتفاق . كنت لا أزال غير مصدق ، ولكنى لم أرد أن أكون جاحداً لاهتمامها ، فطلبت الرقم وجلست هى القرفصاء على الأرض تبتسم لى فى تشجيع . وشد ما كانت دهشتى عندما رد على (بيتر فاند رهوف) وأخبرنى أنه تسلم طلبي وأنه موافق على تعيينى ، ويرجونى أن أحضر لمقابلته .

فمتى أستطيع أن أقابله ؟

حددت له الغد وأنا ذاهل . ثم وضعت السماعة ونظرت إلى مسز كروناس التي كانت تضحك سعيدة وهى تقول : (جالك كلامى) ؟

فى اليوم التالى قابلت صاحب العمل الجديد (بيتر فاند رهوف) ، واتفقت معـــه على البدء فى العمل بعد أسبوع بمرتب (٥٠ دولاراً) فى الأسبوع .

كان اتفاقنا شفويًّا ، ولم نكتب شيئاً فيما عدا الطلب الذى قدمته

إلى الشركة السابقة ، ومع ذلك فقد عينت فى هذه الشركة . فهكذا تسير الأمور فى أستراليا .

وفى ذلك المساء ، فى مصلحة البريد ، سلمنى الرئيس ورقة أسماء الشوارع المرعبة فسلمته استقالتى . وبعد أسبوع صرفت مرتبى ومكافأتى وبدأت عملى الجديد رساماً فى شركة إعلانات (بيتر فاندر هوف) .



❁ رسام إعلانات ❁

كانت الوظيفة الجديدة طفرة كبيرة فى حياتى . ارتقيت من (أفندى) إلى (جنتلمان) . . وقد بدأت العمل الجديد وأنا أطوى قلبى على أجمل النوايا الطيبة له . قلت لنفسى : هذه هى الوظيفة التى سوف أستقر فيها طالما بقيت فى أستراليا .

لم يكن المرتب (٥٠ دولاراً) هو المرتب الذى أحلم به أو الذى أستحقه ولكن المزايا الأخرى غطت – فى رأيى – هذا النقص . . أولى المزايا كانت أن هذا العمل هو (لاول مرة) العمل الوحيد الذى أحبه من أعماق قلبى . بل لم أكن أعتبره عملا . كان الهواية التى أسعد بمزاولتها فى كل وقت .

الميزة الثانية هى قرب مقر الشركة من منزلى . كان بإمكانى أن أمشى إليه إذا خرجت مبكراً فى الصباح ، فإذا تأخرت فإن الترام الذى يقف أمام منزلى مباشرة ينقلنى إليه فى دقائق .

وكان كل يوم يمر على فى شركة الإعلانات يقنعنى بصواب رأيى . .

كانت الشركة فى (شارع كولنز الصغير) ؛ وهو من الشوارع لراقية فى المدينة . وكانت الشركة فى شقة صغيرة فى بيت صغير ذى ثلاثة أدوار كلها حافلة بمكاتب عمل وشركات مختلفة .

وفى الطابق الأرضى تجلس فتاة جميلة غريبة ، مهمتها أن تحضر الشاى والقهوة للموظفين فى مواعيد تناول الشاى . هذه الفتاة حيرتنى وقتاً طويلا ، إذ كنت أراها كل صباح ، ويعجبنى شعرها الأصفر البديع . وفى المساء أرى فتاة أخرى سوداء الشعر تشبه الأولى تماماً حتى لقد ظننتهما توأمتين . ثم ضحكت كثيراً عندما اكتشفت أنهما فتاة واحدة ترتدى باروكة شعر صفراء فى الصباح وباروكة أخرى سوداء فى المساء . أما لون شعرها الحقيقى فلا يعلمه إلا الله . .

وكانت الشقة التى نعمل فيها أربع حجرات ، والموظفون قليلين يعدون على الأصابع .

أولهم (بيتر) صاحب الشركة ومدير العمل ، وهو شاب هولندى الأصل طويل طولا غير عادى ، له وجه ضاحك برىء كوجوه الأطفال ، وتأتى بعده (كريستين) سكرتيرة الشركة ، وهى فتاة جريئة جميلة رشيقة كأنها مانيكان . ثم (بيرل) وهى فتاة صغيرة الحجم قبيحة الوجه ، ولكنها خفيفة الظل محبوبة من الجميع ، ثم (روز) وهى تتكلم كثيراً وتنسى نفسها فى الحديث بالساعات ، وقد شجعتنى رقتها وبساطتها يوماً على أن أتصور أنها تحاول إغرائى فسرت معها فى الحديث فى هذا الاتجاه وإذا بها تنفر وتغضب بشكل أثار دهشتى وندمى .

بعد هؤلاء يأتى (لورانس) مندوب الشركة لتسويق أعمالها . وهو رجل ذكى ساخر ولكنه مؤدب شأنه شأن الأستراليين جميعاً . ثم (جون) وهو شاب عملاق مصاب بالزكام باستمرار ، وهو رسام ، ولم أجد فيه عيباً إلا

أنه (شحاذ) بالفطرة ، فكل ربع ساعة كان يقصدنى مسرعاً قائلا : أعطنى سيجارة .

أما (تشارلز) الرسام الثانى والذى كان يطلق شعره بطريقة الخنافس فإنه فصل فى نفس اليوم الذى عينت فيه .

هل كان فصله إنذاراً عمليًا لى ؟ . . أو أن (بيتر) استغنى بى عنه ؟ . .

على أى حال – باستثناء هذه الحادثة – فإن البداية كانت طيبة جدًّا . أخبرنى (بيتر) فى بساطة وإخلاص أنه لا يتوقع منى أن أؤدى ما يطلبه بالضبط فوراً ، وأنه يعرف أن إخضاع المواهب لاتجاه معين يتطلب وقتاً ومثابرة وخبرة ، وأنه لذلك يتوقع منى أن أخطئ كثيراً فى البداية .

وافقت على كلامه ليكون ذلك خط رجعة لى ، ولكنى كنت فى الوقت نفسه أنوى أن أدهشه بإتقان الأعمال التى يطلبها منى بأسرع مما يتوقع .

هكذا بدأنا معاً .

وجلست إلى المكتب الفخم فى الشقة الأنيقة ، وتحت تصرفى دولاب به كل خامات الرسم . كنت أبدأ العمل من التاسعة صباحاً وبعد ساعتين تتصل بى (وبنا جميعاً) موظفة الاستعلامات الشقراء السمراء لتسألنى عما أحب أن أشرب . شاى أم قهوة ؟ وبعد دقائق تصعد إلينا ومعها طلباتنا . فإذا جاءت الساعة الواحدة خرجت (لمدة ساعة) للغداء ، وفى الثالثة مساء أشرب الشاى مرة أخرى ثم أنصرف إلى منزلى فى الخامسة مساء .

شعرت لأول مرة بأننى فى وسط متمدين حقًّا . كان الجميع مؤدبين مهذبين اندمجوا معى بسرعة ولم يشعرونى لحظة واحدة بأننى مهاجر . وشيئاً فشيئاً صرت صديقاً للجميع . عرفت كل شىء عن (كريستين) وعن

أحلامها فى أن تصير (مانيكان) تغزو « صالونات » الأزياء . وشاركت (بيرل) يوميًّا فى الحديث عن مشروع زواجها الذى كانت تخطط له وتدخر كل « سنت » تكسبه فى نفس الوقت الذى كان خطيبها أيضاً يدخر كل ما يكسبه ليشتريا المنزل الصغير الذى ينويان أن يعيشا فيه بعد الزواج .

وأصلحت ما أفسدته حماقتى مع (روز) وشاركتها الاهتمام والإعجاب بأطفالها الصغار الذين كانت تحتفظ بصورهم معها طول الوقت . ثم تمكنت من أن ألزم جون حدوده فى الشحاذة وأن أنقص إلى أقل قدر ممكن عدد السجاير التى يشحذها منى كل يوم . أما (لورانس) فلم أكن أراه كثيراً لأن معظم عمله فى الخارج ، ولكنه كان مجاملا مؤدباً فى كل مرة قابلته فيها .

كان كل شيء حولى طيباً وأنيقاً ومريحاً . وكان المستقبل يبدو أمامى مفروشاً بالزهور والعطور . أتقنت العمل الذى كان يكلفنى به (بيتر) وأصبحت أنتج بسرعة وخبرة ودربة .

ولكن شيئاً واحداً كان ينغص على جمال هذه الجنة التى كنت أعيش فيها ، هذا الشيء هو أن عملى لم يكن فنيًّا تماماً . كان عملا هندسيًّا يحتاج إلى خبرة ودقة ولكنه لا يحتاج إلى مواهب خاصة . وأنا مواهبى (خاصة جدًّا) لا تلمع ولا تجد نفسها إلا فى الرسم الحر الخيالى . وقد صارحت (بيتر) بذلك يوماً فقال لى : إنه يفهم تماماً هذا الموقف ، لأنه هو نفسه فنان . ولكنه قال إن السوق لا تحتاج إلى الفن بقدر ما تحتاج إلى العمل الهندسى . وعرفت منه أنه درس الفن فى بلده (هولاندا) ثم حضر إلى أستراليا بأمل أن يجد مجالا لمواهب دراسته .

ولكنه لم يجد ، فأخضع مواهبه لطلبات السوق ، وابتدأ يقوم بتنفيذ هذه الأشكال الهندسية التى تحتاج إليها جميع الشركات . والدليل على نجاحه أنه تمكن فى ظرف سنتين من أن يكون هذه الشركة . ومع ذلك قال لى إنه لا يريد أن يخسر مواهبي الفنية ، وإنه ينوى الاستفادة بها فى المستقبل بعد أن يطمئن على وفرة طلبات الأعمال الفنية التى تحتاج إلى خلق وابتكار مثل اللوحات والإعلانات . فى هذه الحالة سوف يجعلنى أتفرغ للفن الحر وينشئ قسماً يجعلنى رئيسا له . . لم يعد عندى إذن ما أشكو منه .

ومرت الأيام وكان كل شيء يبدو أكثر جمالا وأكثر سهولة . ثم تعين معى رسام جديد اسمه (ديك) وطلب منى (بيتر) أن أدربه على العمل .

كان (ديك) شابًّا أستراليًّا صغيراً مهذباً جدًّا وكان مندمجاً فى جمعيات سياسية تنادى بضرورة استقلال أستراليا عن إنجلترا .

ثم شكالى « ديك » يوماً من كثرة شحاذة « جون » السجاير منه ، فضحكت وأخبرته بتاريخى مع (جون) ، وعند ذلك اتفقنا على خطة لتأديب (جون) نهائيًّا . وبنينا خطتنا على أساس طريقة (جون) فى الشحاذة . فإنه عندما كان يطلب سيجارة لم يكن يطلبها لله ، بل كان يقول إنه (نسى) أن يشترى سجاير . . لذلك اتفقنا على أن يكون ردنا على (جون) فى كل مرة يقول فيها هذه الجملة الحمقاء : مادمت نسيت أن تشترى فاشتر منا . وفعلا كنا نبيع له السجاير .

مرة بعد مرة . وأخيراً كف (جون) عن شراء السجاير منا ، وبدأ يحضر معه لأول مرة علبة سجاير خاصة به .

أما أنا و(ديك) فقد تعلق كل منا بالآخر وبدأت أخرج معه بعد

العمل وأرى وجوهاً لملبورن لم أكن أعرفها من قبل .

عرفت عشرات المطاعم اليونانية واليابانية والإيطالية التى تقدم أصنافها المحلية للزبائن ، وتمنيت أن أرى مطعماً مصرياً تتصاعد منه رائحة الملوخية والثوم والفول والطعمية ، وعرفت المطاعم الصغيرة الأنيقة التى (تخدم فيها نفسك بنفسك) والتى تتفنن فى صنع الأطعمة وتضع اللحم والتفاح معاً فى سندوتش واحد . وأعجبنى من أصناف هذه المطاعم (فطيرة الأرنب) . والأرنب يقدم فيها بطريقة لم أرها إلا فى أستراليا ، فهو يفرغ من محتويات بطنه ، ثم ينظف ويحشى باللوز والجوز وما إلى ذلك ، ثم يشكل على هيئة فطيرة مستديرة ، ويربط بخيط رفيع ثم يدخل الفرن ليخرج منه بعد ذلك فطيرة حمراء شهية .

هذه الفطيرة ثمنها (٧٠ سنتاً) أى ٣٥ قرشاً . .

وعرفت المطاعم الفخمة التى يكاد الإنسان يفقد وعيه أمام فخامتها ، (ولم تعجبنى هذه المطاعم !) ، وعرفت الكازينوهات التى تعرض كل ألوان الفن ابتداء من الموسيقى الرفيعة إلى الإستربتيز ، ودور السينما الفخمة ، ودور السينما الغريبة التى يستمر العرض فيها من الصباح إلى الصباح بتذكرة واحدة . فهى مظلمة ليل نهار ، ولكن فيها ساعة كبيرة لامعة بجوار الشاشة كأنما تذكر الجمهور بالوقت إذا كان جمهور هذه السينما يهمه الوقت ! !

وفى معظم الأحيان كنت أذهب إلى البيت لأتغدى وأتبادل حديثاً سريعاً مع (مسز كروناس) ثم أهرع إلى العمل . فإذا لم أتغد فى البيت فإننى كنت أتغدى مع (ديك) فى الشارع . كنا نقصد دولاباً أتوماتيكياً موضوعاً فى الشارع (فى كل شارع) ، ثم نضع فيه الثمن فيخرج لنا الغذاء ساخناً

فى علب من البلاستيك .

وبعد ثلاثة أشهر من وجودى فى شركة الإعلانات عين معنا (مستر جوهانز أرسلومليو) وهو رجل فى الخامسة والستين لا يختلف كثيراً عن ثقل ظل اسمه ، كان يشتغل موظفاً فى مصلحة المناجم فى « نيوغينيا » لمدة ٥٠ عاماً ثم خرج على المعاش بمعاش « ٧٠ دولاراً » أسبوعيًّا وجاء إلى ملبورن ليستمتع بحياته ، ولكنه لم يشأ أن يبقى عاطلا فتقدم بالإعلان الذى نشره « بيتر » يوما عن طلب مراجع لغوى فوافق بيتر وعينه بـ « ٤٠ » دولاراً فى الأسبوع .

وجلس جوهانز أرسلومليو فى نفس الحجرة التى كنت أجلس فيها أ' و(ديك) ، وقد لاحظت من البداية أنه لم يحبنى وأنه لا يبدو عليه ينوى أن يحبنى . ولم يهمنى شعوره فأنا أيضاً لم أرتح إليه . كان فى حد ساخطاً على كل شيء . وبالذات على البرد . وهذا شيء طبيعى بالنسبة لشخص عاش طول عمره فى (نيوغينيا) الاستوائية .

كان يحضر كل صباح وهو يسعل ويبصق ويتمخط ويشكو من البرد . ويحيل حياتنا جحيماً ، ولكنه كان شخصاً مضحكاً . هكذا تصورته أنا و(ديك) ، وصار كل ما يقوله يحملنا على الضحك . بل إننا كنا نضحك قبل أن يتكلم . وشيئاً فشيئاً تعود البرد وكف عن الشكوى وانشغل مراجعته اللغوية .

وسارت حياتى رخية هانئة فى شركة الإعلانات حتى بدا أنه ليس فى الإمكان حقًّا أبدع مما هو كائن .

وعند ذلك استيقظ (شيطان الهدم) فى نفسى يسألنى لماذا لا تستقيل ؟ . .

كان السؤال غريباً لا معنى له ولا مكان له ولا سبب له ، ولكنه استمر يشغلنى كأنما لا يشغلنى فى الوجود شيء غيره .

والسبب ؟ نعم كان هناك سبب . . السبب الحقيقى شيء فى أعماق . فى طبيعتى البناءة الهدامة فى نفس الوقت ! !

فأنا أبنى باستمرار بإخلاص وإيمان وحماس ، وأجعل من كل هدف أبنيه حياة أو موتاً ، فإذا حصلت عليه وشعرت بالاستقرار شعرت بالحنين إلى القلق من جديد ، كأنما (القلق) هو هدف حياتى الحقيقى . كأننى مكافح لا يريد أن يصل إلى شيء أبداً . الكفاح فى حد ذاته هو كل شيء عندى ، ولذلك أهدم كل بناء أبنيه بمجرد شعورى بأننى نجحت فى البناء كأننى أتحدى شخصاً غير منظور أحاول أن أثبت له دائماً أننى قادر على النجاح فى كل شيء. هكذا كنت طيلة حياتى ، ولا يبدو أننى على استعداد لأن أتغير . ولو سألنى سائل عن هدفى فى الحياة لقلت فى صدق وإخلاص : الاستقرار . ومع ذلك فإن كل ما أسعى خلفه هو القلق والجرى والكفاح . والدليل على ذلك أننى فى أستراليا لا فى مصر ! !

هكذا وجدت فى نفسى لهفة شديدة على الاستقالة والخروج من هذه الجنة الوادعة إلى معترك البحث عن وظيفة من جديد . وبدت الاستقالة كأنها أجمل ما فى الوجود ، فأنا أفكر فيها فى كل وقت ولا أستطيع أن أبتعد بفكرى عنها أبداً .

قدمت استقالتى إلى (بيتر) الذى دهش دهشة بالغة ، ولكنى صممت ، فرجانى أن أبقى أسبوعين حتى يعثر على من يحل محلى .

بقيت أسبوعين وأنا أحلم بيوم الخروج من هذه الجنة . .

وبعد أسبوعين سلمنى (بيتر) متنهداً مرتبي ومكافأتى عن المدة التى قضيتها معه ، وتمنى لى مستقبلا طيبا ، ثم ودعنى الجميع ، وشربت آخر فنجان شاى مع صديقى ديك ، ثم خرجت من شركة الإعلانات لأبدأ من جديد رحلة البحث عن وظيفة مناسبة .

Cairo Lights Group

presents

The Great Musical Comedy

"Raud el Farag"

at Nicholas Hall, 148 Lonsdale St., Melbourne

on SATURDAY, 29th JULY, 1967, 6.45 P.M.

Directed by: **SALAH TANTAWI** *Entrance by Donation*

تذكرة دخول مسرحية « روض الفرج »

روض الفرج

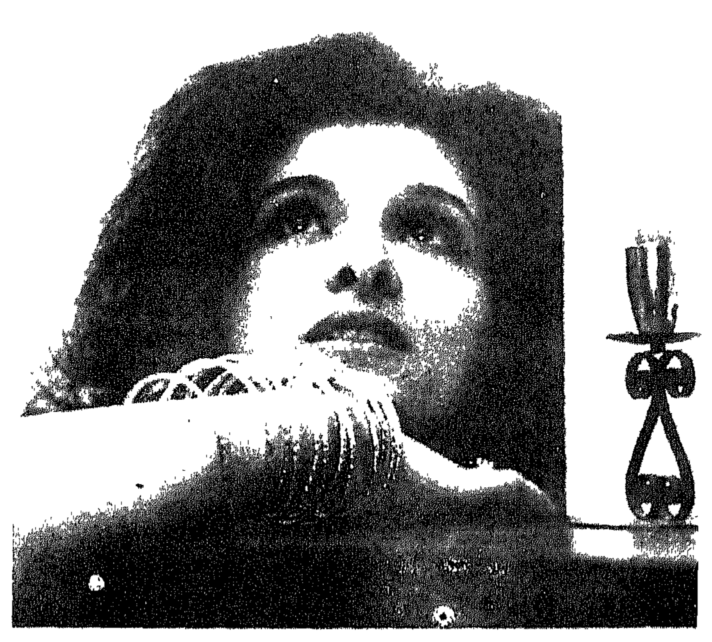
أما فى فرقة (أضواء القاهرة) فإن الأمور كانت تجرى بشكل مختلف . .

كان خروج (برناديت مهران) من الفرقة قد أحدث فيها فراغاً ولا شك ، ولكن البروفات كانت مستمرة . وكنت ألمح فى عينى (تونى وإلياس) خوفاً نبيلاً على مستقبل الفرقة ، وكنت أشاركهما بعض خوفهما فى الحقيقة ، ولكنى أيضاً كنت أحمل فى قلبى اطمئناناً راسخاً لا أدرى مبعثه إلى أننى سوف أعثر على ممثلة ممتازة تحل محل (برناديت) وتلعب دور (بهيجة العظمى) الذى لعبته فى مصر (زوزو نبيل) .

ولم تمض أيام حتى تحقق صدق ظنى . .

كنت أسير فى الشارع وإذا بى أسمع من ينادينى بالعربية : (إزيك يا شيخ سيد . .) التفت خلفى فوجدت شاباً مصرياً ضاحكاً تقدم منى وهنأنى على نجاح مسرحية (سيد درويش) ، ثم قدم نفسه . (رشاد زكى) وقدم إلى زوجته التى كانت تقف خلفه فلم أرها عندما رأيته . (سلوى صادق) . صافحتنى سلوى فى حرج وخجل ، ولكن ما إن وقع بصرى عليها حتى شعرت بأنها هى الوحيدة التى تصلح لبطولة (روض الفرج) .

استمر رشاد يحدثنى عن (سيد درويش) وأنا لا أستطيع أن أرفع



سلوى صادق بطلة فرقة « أضواء القاهرة »

بصرى عن سلوى . ثم عرضت على الاثنين أن ينضما إلى الفرقة ، فوافقا فى الحال وطلبت منهما أن يحضرا إلى البروفة فى نفس اليوم .

كان (رشاد وسلوى) قد هاجرا إلى أستراليا منذ سنتين ، ومعهما ابنتهما الوحيدة الصغيرة . وما إن وصلا إلى (ملبورن) حتى أصيبت (سلوى) بحالة عصبية عندما رأت الشوارع خالية من الناس ، فطلبت من رشاد أن يعيدها إلى مصر ، وقد حاول (رشاد) فعلا أن يعيدها ويعود معها ، ولكن لم يكن معهما نقود يعودان بها فاضطرا إلى البقاء والعمل حتى يدخرا ثمن تذكرة العودة ، وشيئاً فشيئاً تعودا الجو والشوارع الخالية ، وأنجبا طفلهما الثانى ، واشتريا عربة وشقة ، واستقرت بهما الحياة فى (ملبورن) ، ولكنهما لم يستطيعا قط التغلب على الحنين إلى مصر . هذا الحنين الذى دفعهما إلى حضور أولى حفلاتنا ، ودفعهما بعد ذلك إلى الانضمام إلى الفرقة بمجرد أن عرضت عليهما ذلك . .

وفى هذه الليلة احتفلنا بانضمام هذين العنصرين الطيبين إلى الفرقة وأسندت دور (بهيجة العظمى) إلى سلوى ، ودور (زكى مرعش) إلى رشاد ، واختفت مخاوف تونى وإلياس .

وكان رشاد وسلوى يعيشان فى إحدى ضواحى ملبورن ، ولكنهما كانا أول من يحضر البروفة بعد أن يمضيا ساعة على الأقل فى (تنويم) طفليهما ثم يتركانهما فى الشقة ويحضران البروفة .

ومع الوقت أصبحت سلوى هى (ماما سلوى) أم الفرقة كلها .

ثم قدح تونى زناد ذاكرته وتذكر أسرة مصرية كاملة كانت قد حضرت معه على نفس الباخرة ، وذكر أنها أسرة ظريفة جريئة ، وأنه يعتقد أنهم



مسرحية « روض الفرج »



مسرحية « روض الفرج »

سوف يتعاونون مع الفرقة إذا عرضنا عليهم ذلك . ذهبت إليهم بعد البروفة أنا وتونى وإلياس وسلوى ورشاد . . ووجدناهم أسرة مكونة من الأشقاء الأربعة جورج ويوسف وإدوارد لطفى وأختهم الشابة الجميلة مارى . وكان الأربعة قد هاجروا إلى أستراليا منذ عام ليمهدوا لحضور والديهم . وفى ملبورن اشتغلوا جميعاً ، واستأجروا شقة ظريفة ، وعاشوا معاً فى انتظار حضور والديهم من مصر .

وقد رحبوا جميعاً بالانضمام إلى الفرقة . وفى البروفة التالية حضروا . وأسندت إلى مارى دور (سنية الكمسارى) الذى قامت به فى مصر (وداد حمدى) . وإلى جورج أسندت دور مصطفى الذى قام به فى مصر (محمد سلطان) وإلى إدوارد ويوسف أدواراً مساعدة . وبانضمام هذه الأسرة الجديدة أصبحت « أضواء القاهرة » أسرة كبيرة تضم ثلاث أسر . الأولى أسرة تونى وإلياس شلهوب ، والثانية أسرة سلوى ورشاد زكى ، والثالثة أسرة لطفى .

وأصبحت الفرقة أكبر وأغنى بالعناصر الفنية مما كانت .

وتعود أصدقاء الفرقة (دكتور ناصح ميرزا ، والشيخ فهمى الإمام ، وغالب نصر الدين ، والأب بولس الخورى) متابعة البروفات كل ليلة ، حتى لقد قال دكتور ناصح ميرزا إن « أضواء القاهرة » صارت هى (الرابطة العربية) الحقيقية التى تجمع العرب جميعاً كل ليلة .

ثم انضمت إلى الفرقة شابة يونانية حسناء اسمها (جورجيت بقدونس) وكانت تتكلم العربية ، ولكنها لا تكتبها . كانت تتمتع بوجه جميل وجسم

جميل . فأضفت لها مشاهد راقصة ترقص فيها بملابس الرقص الشرقى خلال فصول المسرحية .

كان كل يوم ينقل إلى هواة جدداً وأعضاء جدداً . منهم مصريون سمعوا عن الفرقة فى أنحاء أستراليا وجاءوا للانضمام إليها ، ومنهم مصريون سمعوا عن الفرقة فى مصر قبل أن يهاجروا إلى أستراليا ، ثم جاءوا يحدوهم الأمل فى المساهمة بنشاطهم فى الفرقة .

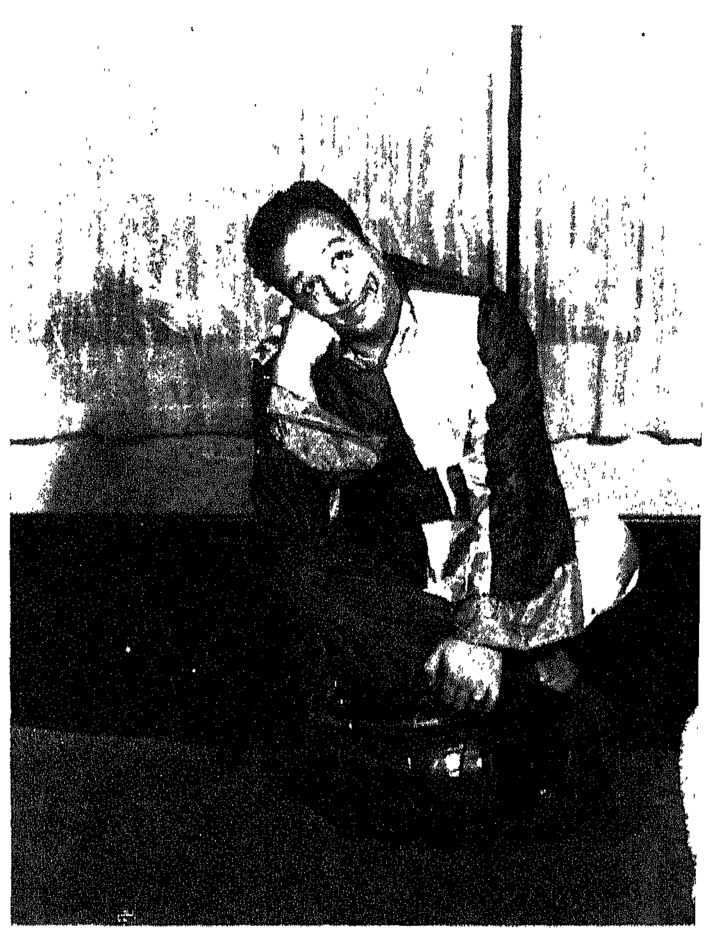
وآخرون أرسل لهم أهلهم خطابات من القاهرة يحدثونهم عما قرءوه عن الفرقة فى الجرائد المصرية وينصحونهم بالانضمام إليها .

ظلت الفرقة تنمو وتنمو حتى شعرت بأننى أستطيع أن أكون من أعضائها جيشاً لا فرقة ، وكنت أرحب بكل من ألمس فيه إخلاصاً وجدية وحبًّا للتمثيل

وعند ذلك ظهرت (برناديت مهران) مرة أخرى . .

دخلت ثائرة ذات مساء ، واعتذرت عن تصرفاتها السابقة ، ووعدت بالانتظام فى البروفات . . رحبت بها وقدرت شعورها الفنى الطيب الذى عاد بها إلى الفرقة ، وعرضت عليها دور (سنية الكمسارية) الذى كان فعلا يناسبها أكثر من دور (بهيجة العظمى) . ولكنها صممت على أن تلعب دور بهيجة العظمى ، فاعتذرت لها بصفة قاطعة ، وعند ذلك اختطفت معطفها وحقيبتها وخرجت مسرعة دون أن تنظر إلى أحد .

كان هذا آخر مشهد مثلته معنا (برناديت) ، وقد أسفت حقًّا لفقدانها ولكنى كنت أعرف أن تنمرها وتمردها أكبر من مواهبها ، وأنه قد يؤثر تأثيراً سيئاً على نظام الفرقة ، وكان النظام والهدوء هو كل ما أهدف إليه ، لأن كل دقيقة كانت محسوبة ، ولا وقت للخلافات ولا للمشاحنات .



المؤلف فى مسرحية « روض الفرج »

كانت طريقتى فى العمل هى أن أحدد فى أول بروفة تاريخ عرض المسرحية . ثم أقسم الوقت بين البروفة الأولى والبروفة الأخيرة إلى مراحل عمل (من حفظ حوار وحفظ حركة وحفظ أغان وتصميم ملابس) . وأتشدد إلى أقصى حد فى ألا تطغى مرحلة على مرحلة . أتشدد إلى درجة أن من كان يرفع صوته فى أثناء البروفة كان يخرج لا من المكان بل من الفرقة كلها ، فضلا عن النظام القديم الذى يقضى بفصل أى ممثل يتغيب بروفة واحدة . كنت أعيش البروفات فى جدية وصرامة وقسوة ، وأعتصر الممثلين وأدربهم على كل كلمة وكل حركة حتى أثق أنهم يؤدونها تماماً كما أتصورها . .

وبعد البروفة كنت أخلع قناع الصرامة والقيادة وأتحدث على سجيتى مع تونى وإلياس ولا نفترق حتى يكاد الديك أن يؤذن للصباح . وفى إحدى هذه الجولات اكتشفت موهبة جديدة عند إلياس بالإضافة إلى مواهبه القديمة (الخجل والإخلاص) . . اكتشفت فيه موهبة تأليف الأغانى .

كنا نجلس ثلاثتنا عند غالب نصر الدين ، وأخرج إلياس ورقة من جيبه طلب منى أن أقرأها وفى أثناء قراءتها بدأ تونى يمدحها ويؤكد شاعرية إلياس ، واستنتجت من ذلك أن إلياس طلب من تونى أن يساهم معه فى إقناعى .إقناعى بماذا ؟ قرأت الأغنية فوجدتها فعلا أغنية جميلة رقيقة ، وسألت إلياس عما يريده بعد ذلك . تلعثم إلياس ثم سكت . أما تونى فطلب منى أن أضع لها لحناً وأغنيها فى المسرحية . كم أحب تونى وإلياس . . لهذه الدرجة يثقان فىّ ! ! . يتصوران أننى مادمت أفعل كل شىء فلابد أننى أيضاً أستطيع أن ألحن وأن أغنى . فنظرت إليهما ولم أر أمامى إلا قلبين مصريين منيرين ، وشعرت حقًّا أننى أستطيع أن ألحن وأن أغنى . وبدأت ألحن وأطوع الكلمات للغناء

15TH ANNIVERSARY OF THE 23RD OF JULY

* * * * * * * * *

THE ARAB ASSOCIATION

presents

CAIRO LIGHTS GROUP

in the great Musical Comedy

RAUD EL FARAG

* * * * *

Based on a Short Story by

NAGEEB MAHFOUZ

Written for the Stage by

SALAH TANTAWI & HUSSEIN KAMAL

Directed by

SALAH TANTAWI

At Nicolas Hall, 148 Lonsdale Street, Melbourne.

On Saturday the 29th of July at 6:54 p.m.

* * * * * * * * * * * * * * * * * *

كتالوج لمسرحية « روض الفرج »



مسرحية روض الفرج

وهما يرددان معى ، وغالب نصر الدين يرقبنا باسماً . ومع تباشير الفجر الأولى كانت الأغنية قد اكتملت لحناً وكلاماً وخرجنا من عند صديقنا اللبنانى ونحن نردد اللحن حتى لا ننساه . ولما كنا لا نكتب نوتة موسيقية فقد اتفقنا على أن نظل نردد اللحن (كل منا فى عمله) إلى أن نتقابل فى المساء فى البروفة لكى نغنيه أمام (ريكاردو ماتسا) ليكتب له نوتة . .

وفى المساء التالى كنت ما أزال أحفظ اللحن ، وكان تونى يحفظه أيضاً . أما إلياس صاحب الأغنية فقد نسى اللحن تماماً . .

كتب ريكاردو نوتة الأغنية ووضعتها فى الفصل الأول فى المسرحية .

وكان تونى يقوم بدور (نحلة) الذى قام به فى مصر (سعيد صالح)

وكان تونى يدور كالنحلة فعلا فى الفرقة ، ويساهم فى كل شىء ، ويبذل عصارة روحه فى خدمة الفرقة ، ولكنه كان أيضاً يلازم الممثلات ويتحبب إليهن جميعاً مما أحنقنى وجعلنى أقسو عليه وأنبهه باستمرار إلى أن يلتفت إلى عمله ويترك بنات الناس فى حالها . ثم اتضح لى فى النهاية أنه لم يكن سيئ النية على الإطلاق . كان يبحث عن زوجة لا عن صديقة . وقد تزوج فعلا إحدى ممثلات الفرقة ، واحتفلنا جميعاً بزواج ابن (أضواء القاهرة) البكر .

وبعد شهرين من البروفات استأجرت مسرحاً فخماً وسط المدينة هو (نيكولاس هول) بإيجار قدره (٣٠ دولاراً) فى الليلة ، واشتريت أقمشة فخمة حولتها سلوى ومارى إلى فساتين أنيقة وملابس مصرية شعبية .

واتفقنا مع مخبز يونانى على أن يخبز لنا عيشاً صغيراً يصلح للسندوتشات لأن العيش الأسترالى لا يصلح للسندوتشات . وكان هذا المخبز هو الوحيد

الذى يستطيع أن يخبز ذلك النوع من العيش ، ولكنه كان أيضاً ممنو
من العمل ، لأنه خالف مصلحة الضرائب فعاقبته بحرمانه من العمل لم
ثلاثة أشهر . ولم يمتنع المخبز عن العمل ، ولكنه كان يشتغل فى السر
ولا يبيع إلا لمن يعرف كلمة السر . وقد عرفنا كلمة السر من صد
لرشاد وكنا نذهب إلى المخبز تحت ستار الظلام ونمشى فى حوا
ضيقة مظلمة ونعبر أنفاقاً ونقفز أسطحاً حتى نصل إلى المخبز السرى ونحص
على بغيتنا . وكانت سلوى تشرف — مع قيامها بالتفصيل وبطولة المسرحية
على صنع الفول والطعمية والسلطة ، فى حين كانت جورجيت تض
(طرحة) فوق فستان الرقص وتقف فى البوفيه مع بعض الزملاء ا
السندوتشات .

وطبعت التذاكر والبروجرامات واعتمدت على أصدقاء الذ
فى التوزيع وجاء التوزيع ناجحاً لدرجة أننا جمعنا فى الليلة الا
(١٠٠٠ دولار) .

ومن الطرائف التى حدثت فى أثناء توزيع التذاكر أننا قابلنا عند غا
نصر الدين ثرياً لبنانياً اسمه أبو أمين ، تحمس لنا وطلب ألا نحرمه من
كمية من التذاكر . ووافقناه طبعاً ، وقلت له إن التذاكر كلها تحت أم
ولكنه طلب منا أن ننتظر حتى يسأل مصلحة الضرائب ليعرف هل الثمن ا
يدفعه لنا سوف يخصم من المبلغ الذى يدفع عنه الضرائب أو لا وو
بأن يرد علينا فى الغد .

انتظرناه ونحن نرجو كل خير . . مادامت المسألة قد وصلت إلى
سؤال مصلحة الضرائب فلابد أنه ينوى شراء ٥٠٠ تذكرة وربما ،



مسرحية « روض الفرج »

تذكرة ، وفى الغد اتصل بنا (أبو أمين) وأخبرنا بأنه سأل وعرف وأنه يري
يشترى تذاكر ، فهل نستطيع تشريفه فى منزله ؟ قال تونى ضاحكاً : لا
فيها عشوة لبنانية . . .

فى الليلة التالية ذهبنا (سلوى ورشاد وتونى وإلياس وأنا) إلى منز
(أبو أمين) الذى كان يبعد ٥٠ كيلو عن ملبورن . واستقبلنا أبو أمين
المنزل الذى يعيش فيه بمفرده ، ورحب بنا وجلسنا معه فى (الصالون)
سألنا عما إذا كنا نحب أن نشرب شايا أو قهوة . قلنا له لا داعى . ولك
صمم فطلبنا قهوة ، ولكنه قال فى ذكاء : إذا قدمت لكم القهوة الآن فإن
سوف تنصرفون بسرعة ، وأنا أريدكم أن تشرفونى فترة طويلة فسوف أؤج
القهوة إذن لحين خروجكم وعند ذلك أقدمها لكم . .

هل يمزح الرجل ؟ . . لا . إنه جاد جداً . على كل حال فلنأت
الغرض الحقيقى من حضورنا . أخرجت له تابلوه المسرح والتذا
ووضعتهما تحت تصرفه فأخذهما وتفحصهما بدقة كأنه يفحص أو
أثرية ، وبعد نصف ساعة من الفحص الدقيق أعاد لى التابلوه والتذا
بعد أن حجز لنفسه تذكرتين . .

تذكرتان فقط اشتراهما (أبو أمين بـ ٤ دولارات) بعد كل ما تكبد
من جهد وتعب لنصل إليه ولمحت خيبة الأمل على وجوه الجميع ، ولم
بوادر السخرية على وجه تونى ، ولكننى لم أشأ أن نضيع وقتاً أكثر فشك
على كرمه واستأذنت ، ولكنه استبقانا وقال إنه قد لا يستطيع حض
المسرحية لأنه لا يخرج كثيراً . فهل نستطيع أن نقدم له الآن جزءاً منها ؟

لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك ، وانفجرنا جميعاً ضاحكين . لا

أن الرجل يظننا فرقة (عوالم) لإحياء الأفراح والليالى الملاح ! !

قلت لسلوى متظاهراً بالجد : غنى شوية يا سلوى . وتنحنحت سلوى طويلا ثم اعتذرت بأن صوتها (مخستك) شوية الليله دى . .

وعدناه بأن نحضر له مرة أخرى ثم خرجنا دون أن نشرب القهوة الموعودة ، وضحكنا يغلب أسفنا ، وأمام الباب مباشرة اكتشفنا أن العربة قد تعطلت ! !

أمضينا ساعات فى تصليحها وعدنا إلى ملبورن ونحن لا نكف عن الضحك . .

وبدأت الليلة الأولى ووقف إلياس يؤدى مسئولياته (الإذاعة والستارة والتلقين) وكنت قد اطمأننت إلى جمهورنا الذى عرفنا فى (سيد درويش) مطمئنًّا إلى وفرة توزيع التذاكر . ومن خلال فرجة الستار كنت ألمح الجمهور مسروراً مندهشاً كأنه مسحور لا يصدق أنه سوف يشهد مسرحية مصرية ويرى فنًّا مصريًّا .

ثم أعلن إلياس عن رفع الستار . ورفع الستار عن مسرحية (روض الفرج) القصة القصيرة التى كتبها (نجيب محفوظ) منذ أكثر من ربع قرن ، والتى حولتها إلى مسرحية أخرجها فى مصر (حسين كمال) وقدمها مسرح التليفزيون فى بداية موسمه الثالث .

أسبوع من التمثيل والنجاح والتصفيق . ثم انتهى عرض (روض الفرج) ، وبدأنا نجتمع لنخطط للمستقبل ولنرى آثار نجاحنا .

جاءنا عرض بأن نقدم المسرحية لمدة أسبوع فى (سيدنى) على حساب التاجر اللبنانى الكبير (إدمون ملكى) ، وجاءنا عرض آخر من الشيخ



مسرحية روض الفرج

فهمى الإمام بأن نستأجر سينما بصفة دائمة نقدم فيها عروضاً كل ليلة على أن يمول هو المشروع .

وعرض علينا غالب نصر الدين أن يتولى هو الإنفاق على الفرقة على أن نتقاضى نحن أجراً ثابتاً .

كانت هذه العروض جميعاً مغرية ، وكانت نتيجة طبيعية لنجاحنا ، ولكنى كنت أرجئ البت فيها لأسمع الصوت الجديد الذى كان يهمس فى أعماق ،

فماذا كان يقول هذا الصوت ؟ .



❁ مأمور ضرائب ❁

خرجت من شركة الإعلانات وفى جيبى شهادة بمدة الخدمة ومرتبى عن الأسبوع الأخير ومكافأتى عن مدة خدمتى بالشركة .

كان الجو صحواً جميلا والشمس ساطعة ، وكانت المحلات التى تعرض كل يوم مختلف المعروضات تلمع تحت أشعة الشمس ، وكانت المدينة كلها تبدو وكأنها معرض لوحات فنية حية .

كنت سعيداً أحس بالنشاط فى روحى وجسمى ، وأشعر بأننى أريد أن أعانق كل من يقابلنى . . كل هذا لأننى حققت هدفى واستقلت من هذه الوظيفة الممتازة ! !

كان النهار ما يزال فى أوله ، فتسكعت فى الشوارع وطفت بالأماكن التى مررت بها فى أيامى الأولى وأنا ضال وحيد أتخبط فى سيرى وأخبط رأسى فى الحائط بحثا عن حل . الآن جيبى عامر بالنقود وقلبى ملىء بالاطمئنان وكل شىء يبدو جميلا بسيطاً مفهوماً وليس فى نفسى ذرة من خوف من شىء .

ذهبت إلى مكتب العمل وقيدت اسمى ، ووعدنى الموظف بإرسال (تأمين البطالة) إلى عنوانى فى نهاية الأسبوع ، وهو التأمين الذى أظل أستحقه طالما كنت بدون عمل .

ثم ذهبت إلى السوق واشتريت مؤونة الأسبوع التالى ، وضمنتها بضع وحدات من جوز الهند الذى يباع بسعر (١٠ سنتات) للواحدة ، ثم ركبت الترام إلى البيت . لم تندهش (مسز كروناس) لرؤيتى أعود فى وسط النهار ، فقد سبق أن أخبرتها باستقالتى وسبق أن أبدت دهشتها وأسفها .

فى المطبخ جهزت الغداء وبعد أن تغديت تمددت فى حجرتى تاركاً لخيالى العنان مفكراً فى لا شىء حتى غلبنى النوم .

إحساس كامل بالفراغ السعيد هو الذى كان يملؤنى فى ذلك اليوم ، ورغبة فى التقلب على السرير ما بين النوم واليقظة إلى الأبد . .

آه لو أستطيع أن أتفرغ لفرقة أضواء القاهرة . . ولكن ما الفائدة ما دام أعضاء الفرقة لا يستطيعون أن يتفرغوا ويتركوا وظائفهم ؟ كنا محكومين بلقمة العيش . ولكنى سعيد سعادة دافئة عريضة تحيط بى وتهدهدنى بين أحضانها ، فلأبعد عن ذهنى إذن الأفـكار الحزينة والصعبة ، ولأتمتع بأشعة الشمس التى تدخل من النافذة وتتخلل جسمى وروحى .

ما هى المدة التى حددتها لنفسى لأبدأ بعدها العمل . . ؟

أسبوعان . قلت لنفسى : يكفينى جداً أسبوعان أعيشهما كالسائح السعيد وأبحث خلالهما عن وظيفة جديدة ، ثم أبدأ العمل الجديد بعد أسبوعين .

هكذا بدأت أتمتع بإجازتى ، وأبحث – على مهل – عن الوظيفة الجديدة . ومر الأسبوع الأول وجاءنى تأمين البطالة فى موعده ، وتسلمته وأنا أشعر شعوراً غريباً بالامتعاض . البطالة نفسها كلمة قبيحة . ولكن لِمَ أشعر هكذا ؟ ألست أنا الذى أختار البطالة . . ؟

ومن بداية الأسبوع الثانى بدأت أبحث بنشاط أكثر عن الوظيفة

الجديدة . ولكن مر الأسبوع كله دون أن أوفق إلى شيء .

آه . . بدأ الخوف يتسلل إلى نفسى . . .ماذا لو طالت فترة البطالة أكثر مما قدرت لها ؟ لقد تبطرت على الوظيفة الجميلة السابقة فهل يقدر لى أن أدفع الثمن بطالة مستمرة . . ؟

ودفعنى الخوف من شبح البطالةالدائمة إلى أن أعود إلى حمأة الوظائف الصغيرة ، فطرقت كل المجالات التى كنت أسمع عن وجود وظائف بها . تقدمت إلى مصلحة المواصلات أطلب تعيينى (كمسارياًّ) ولكنى رسبت فى (الوزن) ، وزنونى فوجدونى أزيد (رطلا) على الوزن المطلوب للكمسارى . وكانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها بأن الوزن من شروط التعيين فى أى وظيفة .

وعدت إلى مصلحة البريد بأمل أن أقضى فيها فترة انتقال أخرى ، وكنت أتصور أننى أستطيع أن أبدأ من جديد ، ولكن اتضح لى أنهم يحتفظون بسجل فيه أسماء كل من تعينوا عندهم ، ولذلك سألونى لماذا استقلت ؟ ولماذا أعود الآن ؟ كانت مفاجأة لى ، فاخترعت لهم قصة ملفقة عن مشروع تجارى وهمى زعمت أننى استقلت لكى أبدأ فيه ، ولكن المشروع فشل . لا أدرى أبدت قصتى مقنعة أم لا ، ولكنهم وعدونى بأن يخطرونى فيما بعد ، ثم أخطرونى فعلا بالاعتذار .

ثلاثة أسابيع ولم أجد أى وظيفة . .

هل أتصل ببيتر من جديد وأعتذر له وأرجوه أن أعود إلى العمل معه ؟ ولكن بماذا أفسر له هذه التصرفات الغريبة ؟ نبذت الفكرة جانباً على رغمى ، وواصلت البحث عن وظيفة وأنا أزداد كل يوم إحساساً بالندم

والخجل حتى صار تأمين البطالة الذى يصلنى أسبوعيًا سكيناً تطعن كبريائى ومشاعرى . ثم سمعت أن مصلحة الضرائب محتاجة إلى موظفين ، فجريت إلى مجمع (الوزارات) وهو الذى تجتمع فيه رئاسات المصالح كلها . .

دخلت حجرة الاستعلامات فوجدت سكرتيرة تجلس خلف حائط نصف دائرى ، وأمامها مجموعة من الشبان ، فوقفت معهم وأخبرت الفتاة بأننى أريد أن أتوظف فى مصلحة الضرائب . وبدون أن ترد الفتاة – ربما بحكم العادة – أعطتنى استمارة طلبت منى أن أملأ فيها البيانات الخاصة باسمى وشهادتى وخبرتى . وبعد أن ملأت الاستمارة أخذتها منى ثم كتبت لى خطاباً وطلبت منى أن أذهب إلى مصلحة الضرائب وأسلم الخطاب إلى موظف شئون العاملين .

أخذت الخطاب وأنا غير مصدق وطرت إلى مصلحة الضرائب ثم إلى موظف شئون العامين وطرقت الباب ودخلت .

وجدت الموظف رجلا هادئاً وديعاً كأنه مدرس ابتدائى ، ووجدته يتناول غداءه ، لكنه تسلم الخطاب وفتحه وقرأه وأشار إلى بالجلوس وهو مستمر فى الأكل ، ثم سألنى بضعة أسئلة وأخبرنى فى النهاية أنه موافق على تعيينى .

تنفست الصعداء ، ولكنه سألنى : هل قابلت مستر (فيتز جيرالد) ؟ من هو مستر فيتز جيرالد ؟ إنه رئيس مجمع الوزارات وهو الذى تخرج من مكتبه كل توصيات التعيين . والفتاة التى أعطتنى الخطاب هى سكرتيرته .

لم أقابله طبعاً ولم أسمع بوجوده إلا فى هذه اللحظة ، والظاهر أن الفتاة أخطأت وتصرفت من تلقاء نفسها .

لابد من مقابلته . هكذا قال موظف شئون العاملين . لا شيء يتم بدون موافقته ، وكان يجب أن أقابله قبل حضورى ، فإن مقابلته هي حجر الأساس فى كل تعيين . اعتذرت بأننى لم أكن أعرف ذلك ، ولكنه تمسك بهذا الإجراء ، وقال إن موافقته مرهونة بموافقة مستر فيتز جيرالد . .

هل يموت هذا الأمل الوليد ؟ .

سلمت أمرى إلى الله . وكتب لى ذلك الرجل الوديع خطاباً يتضمن موافقته ، وطلب منى أن أذهب بالخطاب فوراً إلى مستر فيتز جيرالد . ثم أعود إليه فى حالة الموافقة . أخذت الخطاب وعدت جرياً إلى مجمع الوزارات ، ثم إلى الغرفة التى بدأت منها ، وسلمت الخطاب إلى السكرتيرة وطلبت مقابلة مستر فيتز جيرالد .

دخلت الفتاة حجرة جانبية ، وما هى إلا لحظات حتى خرجت ومعها رجل عجوز محتقن الوجه كأن جلد وجهه مسلوخ ، وقد نظر إلى نظرة فاحصة ثم أشار إلىّ بأن أدخل معه الحجرة .

دخلت معه وأنا أشعر بأن حياتى على كف عفريت . جلست ولكنه لم يجلس بل وقف ثائراً يلوح بالخطاب فى يده ، وقال إن كل الإجراءات التى تمت خاطئة ، وإنه كان يجب أن أبدأ من عنده هو . وجدته سخيفاً ، ووجدت كلامه سخيفاً ، وكنت أشعر بالغضب يملؤنى ، فقلت له إننى لم أكن أعرف ، وإنه إذا كان هناك خطأ فهو خطأ السكرتيرة . ثم قلت له إننى معه الآن فلنبدأ من جديد إذا شاء .

أدهشته إجابتى فتوقف لحظة ، وبلع ريقه ، ثم قال فى صراحة بغيضة ، إن مجمع الوزارات لا يسمح لأحد بالتعيين إلا إذا كان أستراليًّا أو إنجليزيًّا .

آه . . .الحكاية كده ؟ . .

نظرت إلى ذلك الخنزير الأحمر الثائر ، ورأيت فيه كل صور الاستعمار البغيض ، ونسيت بطالتى وحرصى على الوظيفة ، وقلت له رأيى بصراحة . قلت له إن هذه روح تعصب عنصرى يجب ألا توجد فى بلد مفتوح للمهاجرين ، وإننى لا أجد أى فارق بينى وبين الأسترالى أو الإنجليزى ، فأنا مهاجر شريف حاصل على شهادة جامعية من جامعة معترف بها فى العالم كله . وإذا كنت بعد ذلك أجد أن الفرص فى أستراليا ليست متاحة للجميع وأن فيه خيار وفقوس فإن الأكرم لى أن أعود إلى بلدى .

فهل يحب المستر فيتز جيرالد أن أعود إلى بلدى ؟

جلس الخنزير فى مقعده وهو ينظر إلى فى حنق ، وترددت على شفتيه أشياء كثيرة لم يقلها ، ثم لجأ إلى سلاح آخر ، فقال إننى لن أكون سعيداً وأنا أجد نفسى وسط أشخاص كلهم أجانب عنى .

وقلت له إننى لا أبحث عن السعادة بل عن وظيفة ، وأما السعادة فإننى أفضل أن أكتشف بنفسى الإحساس بها أو بعدمها فى الوظيفة .

شعرت بالقوة والثقة وأنا أرى ذلك الخنزير الأحمر يتلعثم أمامى ولا يجد المنطق القوى الذى يفحمنى به . وفى النهاية قال لى إنه مضطر إلى الموافقة ما دامت كل الإجراءات التى من المفروض أن تتلو موافقته . . قد سبقت هذه الموافقة ، وابتسمت له شاكراً ، وأمضى هو الخطاب الجديد على مضض وهو ما يزال يؤكد لى أننى لن أكون سعيداً .

أخذت الخطاب وعدت إلى مصلحة الضرائب ، وقابلت موظف شئون العاملين وسلمته الخطاب ، فهنأنى ، وأخرج ورقة صغيرة كتب فيها اسمى

وشهادتى وتاريخ تعيينى ، ثم طلب منى أن أبدأ العمل فى الصباح التالى . .

وكانت المفاجأة الرائعة — ولعلها سر غضب المستر فيتز جيرالد — أننى عينت بمرتب على أساس شهادتى الجامعية . عينت بـ (٧٠ دولاراً) فى الأسبوع وأما الوظيفة نفسها فهى مأمور ضرائب .

كانت هذه النتيجة هى خير تعويض عن متاعب الأسابيع الثلاثة الماضية ، وقد أخطرت مكتب العمل فى نفس اليوم بالتعيين الجديد لكى يمنعوا عنى تأمين البطالة المشئوم ، وذهبت إلى مصلحة الضرائب فى الثامنة من صباح أول يوم من أيام الأسبوع الرابع . وجدت نفسى مرة أخرى واحداً من دفعة من الموظفين . كلهم مأمورو ضرائب ، وكلهم أستراليون ، واستمعنا إلى المحاضرة التقليدية عن الضرائب وجديتها وأهميتها ، ثم تعهدنا بعدم إفشاء أسرار العمل ، ثم وزعونا على الأقسام المختلفة . وكان نصيبى أن أتسلم العمل فى قسم (الاستحقاقات) فى المبنى الجديد من مصلحة الضرائب ، وهو عمارة مكيفة الهواء من بدايتها إلى نهايتها مضاءة كلها بأضواء رقيقة غير مباشرة تخلع عليها وعلى حجراتها جوًّا سحريًّا جميلا .

تقدمت نحو رئيس المكتب ، وقدمت نفسى إليه ، فرحب بى باسماً وقدم إلى نفسه : جوردون ، ثم بدأ يطمئننى من البداية إلى سهولة العمل وسهولة كل شىء فى المصلحة ، ثم أعاد على الأسطوانة القديمة التى تقول بأنه يتوقع منى أن أخطئ فى البداية فلا يجب أن تزعجنى أخطائى .

ثم صحبنى معه وقدمنى إلى زملائى فى الفرع الذى سوف أعمل به ، وكان ذلك الفرع جزءاً من الصالة الكبيرة التى يجلس فيها ما لا يقل عن مائتى موظف وموظفة . وتفصل بين فروع القسم المختلفة حوائط رقيقة من الزجاج .

ثم أرشدني جوردون إلى مكتبي ، وأشار إلى رف مجاور للمكتب وأخبرني أنني سوف أجد فيه كل صباح مجموعة من إقرارات الضرائب ، وكل ما على عمله هو أن أفحص هذه الإقرارات لأتحقق من سلامة بياناتها بالمقارنة إلى الشهادات المختلفة التي يقدمها دافعو الضرائب مع إقرارات الضرائب ، وبعد ذلك أعيدها إلى الرف .

وبعد أن قدمني جوردون إلى زملائي الجدد وسماهم لى واحداً واحداً همس فى أذنى : أنا واثق بأنك لم تحفظ اسماً واحداً من هذه الأسماء ، وهذا شيء طبيعى ، ولكنك سوف تعرف الأسماء جيداً مع الوقت . . .

ثم تركني لينصرف فقلت له شكراً يا مستر جوردون ، ولكنه عاد مسرعاً وقال لى : لا تقل (مستر) أبدا . . جوردون فقط . الجميع هنا ينادون بعضهم بدون ألقاب فلم أدر ماذا أقول ، وابتسمت وجلست ، وانصرف جوردون ، ولكنه عاد مرة ثانية قبل أن يصل إلى مكتبه ثم قال : نسيت أن أرشدك إلى أهم شيء . تعال معى . قمت معه وسرنا حتى خرجنا من الصالة إلى السلم ثم هبطنا دوراً فوجدت نفسي أمام دورات المياه . وأشار جوردون إلى دورات المياه وقال هذه هى دورات المياه ، ويجب أن تعرف أن هناك اثنتين واحدة للرجال وواحدة للسيدات . الخاصة بالرجال لونها رمادى وعليها رسم يمثل رجلا وكلمة (رجال) مكتوبة . والخاصة بالسيدات لونها أحمر وعليها رسم يمثل امرأة وكلمة (سيدات) .

وأوضح لى جوردون كل هذه الفروق الساذجة بدقة وصبر ، واستمعت إليه أدباً ومجاملة ، فلست من البلاهة بحيث أحتاج إلى مثل هذه الإيضاحات . هل يظننى الرجل الطيب قادماً من المريخ ؟

على أى حال كان جوردون يبذل كل جهده ليجعلنى أطمئن إلى العمل وإلى المكان وإلى الناس وإلى كل شيء . أما جوردون نفسه فقد وجدته إنساناً بسيطاً يتكلم ببطء وتهتهة خفيفة ونظرة شاردة ويلبس بدلة قديمة مقلوبة . وجدته الصورة النموذجية لموظفى الأرشيف فى وزاراتنا .

الآن عرفت واجباتى وزملائى ومكان دورة المياه والفروق الخاصة بها ، فهل بقى شيء لم أعرفه ؟ المواعيد . من التاسعة صباحاً إلى الخامسة إلا تسع دقائق . والعمل متصل طول اليوم باستثناء فترتى الشاى فى الصباح والمساء وفترة الغداء (ساعة) من الواحدة إلى الثانية بعد الظهر .

هكذا عدت إلى العمل فى الحكومة من جديد . مأموراً للضرائب لا (أفنديًّا) كما كنت فى مصلحة البريد . ووجدت العمل يتسم بالدقة والآلية والنظام والهدوء الغريب . وكأن الجميع منومون مغناطيسيًّا أو كأنهم يؤدون صلاة فى معبد ، فإذا جاءت فترة الشاى كان من حق كل واحد أن يفعل ما يشاء ، يجلس على المكتب أو ينام فوقه أو يأتى بكل ما يحلو له . هو حر فهذا الوقت ملكه هو .

وعرفت أن نظام الضرائب فى أستراليا يقضى بخصم الضريبة أسبوعيًّا من مرتب كل موظف وكل عامل . وفى نهاية السنة يملأ كل مواطن إقراراً للضرائب يكتب فيه مرتبه السنوى ويخصم منه الضرائب الأسبوعية التى خصمت منه على مدار السنة . فإذا وجد أن الضرائب زائدة على الحد الذى يجب أن يدفعه (بناء على نسبة معروفة) فإنه يطلب (الفرق) من مصلحة الضرائب فى نفس الإقرار وبعد يوم أو يومين يصل إليه شيك بالمبلغ المستحق . .

والذى يحدث هو أن جميع المواطنين يقبضون فروقاً فى نهاية السنة ، وهكذا ، فإن موعد المحاسبة على الضرائب يكاد يكون عيداً قومياً يسعد فيه الجميع بما يصل إليهم من شيكات ! !

ومع الوقت عرفت زملائى وتعودت العمل وأن أجلس بدون عمل إذا كان الرف خالياً وابتدأ رصيدى فى البنك يرتفع من جديد .

وبدا مرة أخرى : أنه ليس فى الإمكان أبدع مما هو كائن .



الدقائق الأخيرة

فتحت النافذة فوجدت (شيطان الهدم) أمامى . .

تراجعت فى ذعر ، ولكنى لم أستطع أن أبتعد . وجدتنى أقترب منه مجذوباً بقوة غير منظورة . نظرت إليه فوجدته يبتسم ويغمزلى بعينيه . .

تنهدت وقلت : أهلا وسهلا عايز إيه ؟

استند الشيطان إلى إفريز النافذة وعقد يديه فوق صدره حاجباً عنى الشمس والضوء والهواء ، ولم يقل شيئاً ولكنه لم يكف عن النظر والابتسام .

قدمت له سيجارة فهز رأسه رافضاً واتسعت ابتسامته كأنما يقول لى : العب غيرها . تظاهرت بالاستخفاف ، وحاولت أن أتجاهله فأشعلت سيجارة وتمددت فى السرير وفتحت كتاباً وتظاهرت بالقراءة فيه ، وأنا أختلس النظر إلى الشيطان .

لم يخدعه التظاهر . لم يختف . لم ينجح التجاهل ، فأغلقت الكتاب ، وقمت من السرير واقتربت من النافذة وصحت فيه : عايز إيه ؟

قال (وكنت أخمن ما سوف يقوله) عايزك تستقيل من وظيفتك وتحل فرقة أضواء القاهرة . . وتعود إلى بلدك .

روعنى كلامه برغم توقعى له . قلت : ولكن هذا جنون . إننى الآن فى أوج

نجاحى ، وظيفتى ممتازة ومرتبى كبير وفرقتى ناجحة محبوبة وأنا الآن أجنى ثمار كفاحى فى أستراليا .

هز رأسه باستخفاف : كلام فارغ ، لقد قمت بتجربة ووصلت إلى نهايتها ولن تستطيع أن تستقر فيها لأنك تزهد كل شىء بمجرد النجاح فيه .

قلت محاوراً آملا : لست زاهداً هذه المرة . إننى أريد الاستمرار فيما حققته من نجاح .

قال : انظر بخيالك إلى المستقبل فلن تجد إلا النجاح . لا جديد سوف يحدث . وهذا معناه فى الحقيقة أنه لم يعد أمامك إلا الموت . الكفاح والصراع والأمل والفشل هى التى تطيل العمر وتجعل الحياة جديرة بالحياة . أما النجاح فهو النهاية . هو الخطوة الأخيرة التى ليس بعدها إلا انتظار الموت . فهل تحب أن تموت ؟

ارتعدت وقلت : لا . إننى أكره الموت ومجرد تفكيرى فيه ينغص على حياتى . ولكن المسألة الآن ليست مجرد تجربة . إن معنى ما تقول هو أن أهدم كل شىء لأبدأ من الصفر من جديد .

قال : وهل هناك ما هو أجمل من أن تبدأ من الصفر ؟ الصفر هو الشباب . هو الميلاد المتجدد . البدايات تجعلك شابًّا دائماً . هل نسيت أن سبب خروجك من مصر هو شعورك بأنه لم يعد أمامك جديد تتوقعه وليس عندك إلا الاستمرار فيما وصلت إليه ؟ ألا تجد نفسك الآن فى نفس الحال التى كنت فيها فى مصر ؟ ماذا أمامك من جديد فى أستراليا ؟ مزيد من الدولارات فى البنك ؟ مزيد من النجاح والشهرة ؟ كل هذا متشابه وكل هذا معناه أنه مقدمة للموت . قلت متشبثاً بأمل جديد أخير : ولكن ماذا يقول الناس

عنى ؟ كيف يفهمون موقفى إذا هدمت كل شيء ؟

قال الشيطان . لا يهمك الناس . اتبع نفسك فقط . اسمع كلامى تذكر أنه ليس بعد النجاح إلا الموت .

طأطأت رأسى مفكراً فى كلامه ، ثم نظرت إليه ، ولكنه كان قد اختة وإن استمر صوته يهمس فى أعماقى . ارجع . ارجع . .

كان هذا هو الصوت الذى ملأ نفسى بعد عرض (أضواء القاهرة الأخير وعبثاً حاولت أن أصم أذنى عنه . . فى بعض الأحيان كنت أحاول أ أخدعه بأن أحول كلامه إلى حلم يقظة ليضعف تأثيره فى نفسى ، فأتصو نفسى وقد عدت إلى مصر وقابلت أهلى وأحبائى وجلست من جديد ا الأماكن التى تعودتها ، ومشيت فى الشوارع التى أحبها ، ولكن هذه المحاولاد لتمييع كلامه إنما كانت تثبت كلامه حتى بدت لى — أخيراً — العود وكأنها الهدف الوحيد المنشود . .

انتصر الشيطان ، والتحمنا معاً حتى صرنا شخصاً واحداً . قررت العود إلى مصر .

لم يوافقنى واحد على رأيى . عارضنى الجميع . تونى وإلياس ورشا وسلوى وريكاردو وغالب والشيخ فهمى ودكتور ميرزا والأب بولس عارضونى وسفهوا كلامى ، ولكن لا فائدة . كانت العودة الآن هى الهدف الوحيد الذى يملأ كيانى نشوة وانفعالا ، وتطلعت بلهفة لا مزيد عل إلى أن أبدأ من الصفر فى مصر . أبحث عن وظيفة وعن مسكن وع وجود .

بدأت الوفود تزورنى يومياً لإثنائى عن قرارى ، ولكن منطقى — لدهشتى

كان أقوى من منطق الجميع . وبذل الأحباء آخر سهم فى جعبتهم . عرض على دكتور ميرزا والشيخ فهمى أن أبقى فى أستراليا وأستقيل من العمل وأتفرغ للمسرح وأتقاضى مرتبى من الرابطة العربية . كان عرضاً جميلا ، وكان خير تتويج لكفاحى . ولكن لا فائدة . . لقد قررت العودة وبدأت تنفيذ إجراءاتها .

ذهبت إلى البنك لأسحب ثمن تذكرة العودة . كان رصيدى قد شارف (١٠٠٠ دولار) ، وتذكرت دخولى إلى ملبورن منذ شهور قليلة وكل ما فى جيبى (١٦ دولاراً) ثم حجزت تذكرة على الباخرة (جاليليو) التى تسير من أستراليا إلى إيطاليا .

وقدمت استقالتى إلى جوردون الذى ذهل . كان قد مضى على فى مصلحة الضرائب أربعة أشهر تقدمت فيها كثيراً ، وخبرت العمل ، وصرت بالفعل واحداً من (قسم الاستحقاقات) . حاول جوردون أن يثنينى عن عزمى ، ولكنى تشبثت بالاستقالة كما يتشبث الطفل بلعبته ، وعند ذلك تنهد الرجل الطيب ووافق ، ولكنه قدم إلى اقتراحاً أفضل من الاستقالة .

قال : لماذا تستقيل ؟ . .لماذا لا تأخذ إجازة ؟

قلت مندهشاً : إجازة . . . ؟

أجاب : إجازة سنة بدون مرتب . لعلك بعد أن تعود إلى مصر تغير رأيك وتعود إلى أستراليا ، وفى هذه الحالة تجد وظيفتك محفوظة .

قلت : ولكنى موظف جديد فهل من حقى أن آخذ إجازة طويلة بهذا الشكل ؟

أجاب : أنا لا أعلم أذلك ممكن أم غير ممكن ؟ ولكنى سأحاول . سوف

أكتب طلباً وأقدمه إلى مجمع الوزارات ولننتظر الرد منها معاً .

وجاء الرد بالموافقة ، وحصلت على إجازة لمدة سنة بدون مرتب بعد عمل أربعة أشهر فقط . قلت لجوردون : أريد أن أترك العمل قبل سفرى بأسبوع . سألنى : لماذا ؟ فأجبت : لكى أقدم طلباً أطلب فيه استرداد الزائد مما دفعته من ضرائب . فابتسم وأجاب : هل من المعقول أن تكون موظفاً فى مصلحة الضرائب ثم تحتاج إلى أسبوع لتنال حقك . ابق فى العمل حتى آخر يوم ، وسوف يأتيك حقك وأنت تعمل ، وبذلك تكسب مرتب أسبوع .

وكتب لى جوردون إقرار الضريبة ثم هرش رأسه وقال : إن ما سوف يعود إليك مبلغ صغير هو (٦٥ دولاراً) فقط . .

لم أفهم معنى كلامه ، فقلت : مادام هو حقى فأنا راض به . ولكنه بدا غير مقتنع بكلامى . نظر إلى وابتسم ثم قال : ألا تنفق على أحد ؟ فكرت ثم هززت رأسى نفيا ولكنه قال : سوف نعرض أمرك على أنك تنفق على عائلة وأنك أنفقت عليها فى المدة السابقة (٤٠٠ دولار) فما رأيك ؟ . .

ما رأيى ؟ إنه يطلب منى التزوير . لم أدر ماذا أقول فلم أرد . ولكنه وضع هذا الرقم فى خانة مصروفاتى وبذلك ارتفع المبلغ من (٦٥ دولاراً) إلى (٩٠ دولاراً) . لقد زور رئيس قسم الاستحقاقات بمصلحة الضرائب إقرار الضرائب من أجل أن يجاملنى . ولكنه كان تزويراً جماعيًا شاركه فيه رؤساؤه أيضاً عن طيبة قلب .

وفى اليوم الأخير فوجئت بمجموعة من الهدايا من جوردون والزملاء جعلت الدموع تنهمر من عينى ، ثم صافحت الجميع وخرجت وأنا ألعن نفسى وألعن شيطانى معاً. أما مسز كروناس فإنها أعطتنى من وقتها يوماً كاملا

خرجت معى فيه لشراء الهدايا التى كنت أريد إحضارها معى ، لم تخرج معى لتؤنسنى فقط أو لتختار لى ، بل لأنها تملك أبونيها يعطيها الحق فى خصم ٢٠ ٪ فى كل سلعة تشتريها ، وبذلك وفرت لى مالا يقل عن ٤٠ دولاراً .

كان الجميع كرماء ، غمرونى بالحب والمودة ، وجاءت الليلة الأخيرة وامتلأ المنزل . حضر تونى باكياً باسماً ، وحضر إلياس حزيناً وقوراً ، وحضرت سلوى ورشاد ومارى لطفى وأختها وكل أعضاء (أضواء القاهرة) وأعضاء (الرابطة العربية) ، وامتلأ المنزل بالضحك والدموع والتمنيات الطيبة وامتدت السهرة إلى الساعات الأولى من الصباح .

وفى الصباح جاءنى دكتور ميرزا بعربته ليصحبنى إلى الميناء . وفى الطريق مررنا بكل أصدقائى وأصدقاء كفاحى : غالب نصر الدين والشيخ فهمى الإمام وادموند ملكى والأب بولس الخورى . ودعت الجميع للمرة الأخيرة وتألمت لأننى لم أجد الأب بولس الخورى . ولكنى تركت له خطاباً أودعه فيه .

وفى الميناء نقل العمال حقائبى إلى كابينتى فى الباخرة (بدون تفتيش) ثم جلست مع دكتور ميرزا فى الكافيتريا حتى اقترب موعد قيام الباخرة ، وعند ذلك صعدت إلى الباخرة لأعرف مكان الكابينة التى سوف أبقى فيها شهراً كاملا ، وما إن جلست فى الكابينة حتى فوجئت بمن يطرق الباب . فتحت الباب فإذا به الأب بولس الخورى . لقد جاء الرجل النبيل يودعنى بنفسه ، واعتذر عن عدم وجوده فى الكنيسة ثم قال إنه ما كان يصفح عن نفسه لو أنه لم يرنى قبل سفرى .

ماذا فعلت حتى أستحق كل هذا الحب ؟

EMBASSY OF THE
UNITED ARAB REPUBLIC
AUSTRALIA.

MR. S. TANTAWY
405 Lygon ST.
Carlton.
MELBOURNE
VIC.

كانبرا ١٩٦٧/٨/١٠

الأخ الفاضل / صلاح طنطاوي

تحية طيبة وبعد .

وصلنا خطابكم بتاريخ ٢ /٨/ ٦٧ وبه الشيك

بمبلغ ١٠٠٠ دولار .

أرجو أن تتقبل باسم السفارة الصغير وزملائك

خالص الامتنان على ما تقدمتم به من مجهود مشرف

وكريم

وإنا نرجو دوام التوفيق ومزيداً من النجاح

نتمنى لكم التقدم والرقي . شاكرين لكم

خطاب شكر من السفارة المصرية فى أستراليا

صدر للمؤلف

العنوان	النوع	الناشر
الناس والحجارة	مجموعة قصصية	دار المعارف
النقش على الحجر	مجموعة قصصية	الدار القومية
سيد درويش	مسرحية	الدار القومية
الحلوة دى	أوبريت	الدار القومية
١/٢ مليون دقيقة فى أستراليا	أدب رحلات (الطبعة الأولى)	كتابات معاصرة
القتيلة الثالثة	ترجمة (أجاثا كريستى)	الأهرام
الضحية القاتلة	ترجمة (أجاثا كريستى)	»
الضوء القاتل	ترجمة (روبرت ديللون)	»
رحلة حب مع أجاثا كريستى	دراسة أدبية	روز اليوسف
تحت الطبع :	رحلة حب مع سيد درويش	
	أحزان طائر الكناريا . . ليلى مراد	

كتب للأطفال :

العنوان	الناشر
صندوق الدنيا	عالم الكتب
كروان	دار المعارف
حلم زنوبة	»
حارة ستوتة	»
النخلة الذهبية	»
ثوار كوكب لوكور	»
مغامرات الدكتور فصيح	»

المحتويات

رقم الإيداع	١٩٧٦/٤٩٨٠
الترقيم الدولى	٨ – ٥٤١ – ٢٤٦ – ٩٧٧ ISBN

١/٧٦/٤٧٠ مطابع دار المعارف–١٩٧٦

